جائزة مي غصوب للرواية

غسّان الصّامتي

النّغل

رواية

دار الساقي

جائزة مي غصوب للرواية

غسّان الصّامتي

النّخل

رواية

دار الساقي

النَّحل

غسّان الصّامتي

النَّغل

جائزة مي غصوب للرواية

دار الساقي

هذا الكتاب مُجاز لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، الرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم تشتره لاستخدامك الشخصي، الرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

فازت هذه الرواية
بـ"جائزة مي غصوب للرواية"، الدورة الثالثة 2024

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية، 2024

الطبعة الإلكترونية، 2024

ISBN-978-614-03-0336-2

Published 2024 by Dar Al Saqi Dar Al Saqi

Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP

T: +44 (0) 20 7221 9347

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com
www.saqibooks.com

@DarAlSaqi دار الساقي Dar Al Saqi Dar Al Saqi

إلى كلّ مَن أَحبَّ أهلي.
إلى مَن ساعدني على تمزيق الشّرنقة وبسط جناحيَّ في الفضاء من أجل طيران حُرّ.
إلى حبيبتي وبشرى الحياة.
إلى ثلّة من أصدقاء حقيقيّين لم يتململوا مع أرجوحة الزّمان، وأصدقاء نسوني ولم أنسَهم...

يدور كل ثقب أسود على محوره كما تدور الأرض. هذا الدّوران يخلق دوّامات من الفضاء الملتوي، إلى حدّ ما مثل الدّوّامات في حوض استحمام. يتكوّن الثقب الأسود من تشوّه الزّمَكان...

كيب ثورن
عالم فيزياء أميركي

لا شكّ أنّها في ثقب أسود. تشوّه المكان، توقف الزّمن، عاد إلى الوراء عقوداً، في قبضة قانون الجاذبيّة الكموميّة. تلك البلاد الملعونة...

الكاتب

هذيان

عمارة عجوز، حَدْباء، نائمة على اعوجاجها الآيل للسّقوط في أيّ لحظة على رؤوس متساكنيها الذين ينامون أيضاً، هنيئاً، في مأساة. مدخل قميء. سِكّير ممدّد وسط برك القيء والبول كأنّه جثة مُسمّمة. متشرِّد يفترش أوراق جرائد أجنبيّة كبيرة ويحتضن قطّاً أسود قذراً. حقيبة سفر جلديّة قديمة على مقربة منه. بدت قبيحة جدّاً. رائحة سجائر وخراء تفوح من جميع أركان ذلك المكان. على الرّصيف، بمحاذاة الباب الخشبي الهرم، حاوية قمامة مقلوبة. أكياس بلاستيكيّة سوداء مُمزّقة. بقايا خبز يابس. علب طماطم وبيرة. حفاض أطفال. خراء كبار. قشور بُرتقال. أعقاب سجائر. كرتونة رماديّة داكنة. كثير من القوارير الفارغة. ذباب كثير يحوم حول المَزبلة. جِراء شقيّة لا تزال تنبح ولم تخرس طوال اللّيل. يتردّد الصدى في الرواق النديّ بين حيطان جرباء كساها عفن الفُطر. على درجات السّلّم قططٌ كثيرة. تتكسّل، تتناسل، رغم ذاك النّباح المُسترسل إلى ما لا نهاية. اللّعنة على القطط والكلاب ومدرِّبها معاً. لعنة كبيرة! تنزل هكذا، فجأة، من السّماء على رأسه. ابن العاهرة. ذاك الأشيب النّحيف الذي اكترى مؤخّراً الكراج الملعون، في ري دو شوسي...

يقال إن ذاك المستودع تسكنه الأشباح. مهجور منذ سنين. فارق مالكه وأهمله وُرثاؤه. قُتلت فيه مومس من قبلُ في ظروف غامضة. ثم اكتراه عرّاف. اتخذ منه عيادة للشّعوذة والدّعارة. الكلام كثير على ألسن النّاس. شائعات لا بأس بها في سجلّ المحل. سمعت من حارس العمارة في الشّارع المقابل أنه قد أقدم شابّ منحرف على قتل عجوز وحفيدها تحت تأثير الكحول والأدوية المخدّرة. كانا غريبَين عن العاصمة. لم يمضِ على انتقالهما وقتٌ طويل. حدثت الجريمة منذ سنتين إلى ثلاث سنوات تقريباً، وقد خلص التّحقيق إلى السّرقة كداعٍ لارتكاب الجناية، وأُغلق الملفّ.

أصبحت أجزم أنّ هذا ما يفسّر هيجان الكلاب اللّعينة وجنونها في اللّيل. تمسي تنبح من دون انقطاع. لا تتعب، لا تجوع، لا ينال منها العطش، لا تنام،

وكانت تبدو دائماً مرعوبة.

في الأخير، إنّ مع الكلاب حقّاً. ما من خيارات كثيرة. فإمّا الجنون وإمّا الجنون. أنا أيضاً، كنت قد بدأت أجنّ، أصابني اكتآبٌ حادّ. أرى كوابيس. تنتابني باستمرار نوباتُ هلع مفاجئة، بما أن القبو الذي أعيش فيه يقبع مباشرة تحت تلك اللّعنة السّوداء. إنّ الشياطين لتهَدهدني كلّ ليلة قبل النّوم.

***

رنّ الموبايل. ثمّ أخذ يتوهّج ويتخبّط، مُحدثاً اهتزازاً عنيفاً على الطّاولة الخشبيّة. كان الرّجّاجُ مُفعّلاً والجرس على أقصى حدّ. صفّارة إنذار. بوق شاحنة ثقيلة. رغم أنّ الرّنين كان يحفر في دماغي كثقّابة، كنت مستعدّاً أن أتحمّل. أن أتحمّل كلّ شيء. بما في ذلك كلّ تلك الفوضى العقليّة والنّشاز. أروم صيد مكالمة واحدة. واحدة فقط. تأكلُ الطُّعم وتعلق في دبّوس الصّنارة. لا يهم إن كانت من متّصل مجهول، أخطأ في العنوان.

لست أذكر منذ متى وضعته على تلك الحال المَيؤوس منها. أجزم أنّها مدّة طويلة. طويلة كفاية، وموحشة كفاية، جعلتني أعتزل مخالطة البشر، وأختبئ في مغارتي تحت الأرض، متوارياً عن الأنظار كالزَّبابة، مع أجناس أخرى من الكائنات.

مددْتُ يدي من مهجعي إلى الطاولة أمامي، وانتشلت المحمول القبيح مُهترئ الأزرار، لأكشف عن هويّة المتّصل الذي حيّر سُباتي البائس. لم أصدِّق. كانت الحياة. صُدمت. ظننت أني ما أزال نائماً، ذاك النّوم الثّقيل، نوم الأموات.

تراه حلماً من أحلامي المجّانيّة هذه الأيّام؟

دعكْتُ عينيّ المتورّمتين من الأرق. دَمعتا ضباباً. اتّضحت الرُّؤية قليلاً. هي الحياة. أنا لا أتخيّل. تردّدت في استقبال المهاتفة. لم أكن أتوقّع أنّها ستتذكّرني بعد جلسة مُتوتِّرة، كجلسة طلاقنا للضّرَر. في محكمة النّاحية، وبّخنا، هي وأنا، قاضي الأسْرة. عجوز وقور كاد أن يبصق علينا. أراد أن يقذفنا بمطرقته الخشبيّة تلك. لم نكن أبوين ولا زوجيْن صالحَيْن.

لست أدري ما دفعني إلى رفع السّمّاعة. أنا حمار. من باب الأدب؟ ربّما...

بعد دردشة قصيرة لمست فيها بُروداً في صوتها، اتفقنا على موعد في مقهى القمر في السنتر فيل على السّاعة الرّابعة بعد الزوال. كان قد مضى وقت طويل على مكالمتها الأخيرة لي، حتّى ظننت أنّها هجرتني بعد كل تلك المُضاجعات العنيفة التي جمعتنا في سرير واحد. ربّما كان معها حقّ عندما تركتني يومذاك نائماً على كرسي المكتب الذي أكله الغبار وغمرته الفوضى، ومضت دون أن تودّعني كأنّها مومس مُحتالة. في ذلك الصّباح الحزين، نهضت مُتأخّرا ككلّ كاتب مُحبط ويحتاج حالاً إلى العُزلة. كاتب يعاني اكتئاباً حادّاً. عاطل عن العمل. مفلس. يكره جحيمَ النّهار. يهيِّج عليه صداعاً نصفيّاً لعيناً مُزمناً. ويعشق السّهر، في مكتب فوضوي، مع كأس الشّاي، وقِرطاس قُلوب عبّاد الشّمس، وماكينة الكتابة القديمة، في ليالٍ كئيبة باردة كليالي الشّتاء.

بحثت عن زوجَي الجوارب الضائعَين في الفراش بين طيّات بطّانيتي الصّوفيّة الثّقيلة. لبستهما. انتعلت الشبشب. بسّمت النافذة لأنّ رائحة النّوم والغبار النّدي تشقّ الرأس. على فكرة، هي السّبب في التهاب الجيوب الأنفيّة الذي أعاني منه. تثاءبت. طقطقت فقراتي. حملت منشفتي ودخلت الحمّام مُتثاقل الخطى، أجسّ بدني وأحاول هباءً رفع سروال البيجاما الذي يتّسع ويتمرّد كل يوم أكثر على مؤخّرتي النّحيلة، ثمّ أشعلت المصباح.

أنا وذاك الفانوس العليل صُحبة قديمة وقد اعتاد أحدُنا الآخر. لم أغيِّره قطّ منذ أن اكتريت القبو قبل أعوام. لم يحترق. صمد في بُؤسه. كان أوفى من مصباح المطبخ ومصباح غرفتي الضيّقة. احترقا عدة مرات، ممّا اضطرني إلى استبدالهما في كل مرّة. وعندما أخبرت المالكة المتعجرفة عن المُشكلة اكتفت بكلام فارغ مثل التّلميح إلى الإفراط في استعمال الضوء والسّهر حتّى وقت متأخّر من الليل. في حين كانت توقن، تلك الأرملة العاهرة، أنّ هنالك تماساً في دارة الأستوديو.

تربّتْ بيني وبين صديقي المصباح ألفةٌ. لقد جمعتنا عواطف الكآبة في منفانا، سجينَين بين أربعة حيطان قميئة تحت الأرض. تقاسمنا الزنزانة والأحزان وأكلنا ماءً وملحاً وإحباطاً. أحببت كثيراً مصباحي الأليف وتعلقت به، حب غُربة، حب مُعاناة. عوّضني عن خسارة كلبي العام الماضي، بعد أن

أعدمته البلدية رمياً بالرّصاص. كانت حملة شرسة على الكلاب السائبة ومكافحة داء الكلَب. أرداه أحدُ القنّاصة في مكبّ النُّفايات، وهو يتودّد إلى كلبة مُتشرِّدة رقطاء، الأرجح أنّها نازحة من إحدى الضواحي. راح الأحمق جرّاء نزوة عابرة ورأس يابس، وسوسا له أن يقلب إناء عشائه الذي أتركُه له كلّ يوم في المكان المعتاد خلف العمارة، ويركض وراء الشهوة. انتهى كلبي المسكين، ذاتَ صيف حارق، دون سابق إنذار، جُثّةً نازفةً في كُدس جُثث مكوّمة فوق بعضها، في الصندوق الخلفي لشاحنة البلديّة. ثمّ اقتيد، مع كل قتلى الكلاب المكلوبة، بعد ازدحام الصندوق، إلى محرقة كبيرة في بطحاء المستودع البَلَدي من أجل معالجتها بالحرق وإرسالها إلى الجحيم. بعض الكلاب، من حطب تلك النّار، كانت ما تزال حيّة، ولم يُجهَز عليها. لم تطلق من كل تلك البنادق رصاصةُ رحمة واحدة. كان نُباح الكلاب المشويّة – وهي حيّة – يُسمع بوضوح خلف ذاك السّور الأسمنتي العازل، في برزخ بين حياة وموت، وينبعث بين ألسنة اللهب ودُخان الحطب والبنزين ورائحة الشواء. أشفقت كثيراً على كلبي وبكيت على مأساتنا معاً. هذه قساوة. كان وديعاً ودمث الأخلاق على عكس البشر. قلبه أبيضُ كلون فروه الخشن. لم يؤذِ أحداً. لم يكن مكلوباً. كان بريئاً ممّا افتروا عليه. ولا يستحقّ حكم الإعدام وتلك الميتة الجماعيّة البشعة. لم يمكنوني لا من جُثّته ولا من رفاته كي أؤبّنه وأقوم بواجب الدّفن. وجدت في الشّفقة سلوى، ودخلت في حداد لمُدّة أسبوع. لبستُ فيه الأسودَ وأطلقتُ شعري المُجعّد ولحيتي الغزيرة، حُزناً.

البؤساء لبعضهم، على مرّ الزّمان يا أخي. كنت أشفق أيضاً على خليل بؤسي الآخر، المصباح، لأنّه غريب مثلي ومشنوق في سقف أجرب منذ سنين، كأنّ قَدَره أن يهدر شبابه ويتدلّى، في رائحة الخراء، مقلوباً على رأسه، ويضيء على الآخرين حتى يحترق ويُنسى.

هناك، تحت ضوئه الخافت، استمتعت بإغراق الصراصير السوداء بالبول. غزت الوقحة قبوي المُنّسخ وفتكت به بالقوّة. أفلست في "المغازة"[1] على مُختلف المبيدات والعقاقير الحشريّة. من الآخر، جرّبتها كلّها لكنها لم تجدِ نفعاً.

عبث. اتضح لي أنّها مُجرّد شعارات إشهاريّة في مغازات نصّابين أبناء ق***. استنفدت كل أسلحتي الكيميائيّة في رحى حربي اليوميّة معها ولم يبقَ لي سوى بول الصّباح كي أثأر على الأقلّ من تلك التي زحفت على المبولة، باغية أن تحتلّها وتلقي بمؤخرتي في الشّارع. انتهى تدفق البول. تراجعت. نظّفت دنسي. أرجعته إلى داخل سروالي الفضفاض بعد أن دُست على بعض الخنافس الهاربة وعجنتها. تقدّمت بحذر. سحبت الأداة وأغرقت حوض المبولة بالماء. سريعاً، تكوّنت دوّامة كبيرة في الحفرة وابتلعت صفار البول ومعه بقيّة الصراصير النّاجية من الهجوم منذ قليل. أطفأت النّور على جريمتي كقاتل مأجور. كانت إبادة جماعية. لم أغلق الباب ورائي لأنه لم يكن ثمّة باب. وخرجت من المعركة مُكوّر الصّدر أتبجّح بمجزرة المرحاض، قبل أن أتنبّه إلى ورقة مُلصقة على ظهر باب غرفتي بواسطة دبوس إبهامي. كانت رسالة من عشيقتي الحياة، تركَتها قبل أن تُغادر زنزانة الطّابق السفلي الغارقة في أحزان مزمنة لا تزول.

1 متجر.

تقدّمت من الباب الخشبي. انتزعت الورقة. دخلت الغرفة. ما زالت داكنة يأكلها الظلام، كما هي رغم أن الصُّبح انبلج. الشّمس تزور الغرفة زيارة خاطفة في منتصف النهار فقط. قبست مفتاح الضوء. بحثت عن نظّارتي في أدراج المكتب. لم أجدها. واصلت بحثي الحائر بين الكتب والأوراق المبعثرة هنا وهناك تحت كُديساتٍ من صدفات بذور الفُستق واليقطين المُجفّف وعُلب جِعة فارغة. فجأة، تذكّرت أني نمت البارحة على الكرسي الخشبي مُعظم الليل. لم آوِ إلى فراشي إلّا في الهزيع الأخير بعدما صفعَني البردُ فوثبت نائماً ماشياً، غير واعٍ إلى الدفء. كانت النظّارة تتدلى في رقبتي بخيطها البُنّي ولم أهتدِ إليها. يا لي من غبيّ شارد الذهن. وضعتها على عجل. أمسكت الرِّسالة وطفقت ألتهم السّطور:

عزيزي الباقي هناك في قوقعتك،
ميلاداً مجيداً وكلّ عام جديد وأنت وحيد.

مساء الخير،

لأنّ حُجرتك تقبع في ظلمتها كامل النّهار وجافاها شعاعُ الشّمس.

أمّا بعد،

أنت شابّ. لكنّي أراك عجوزاً في الخامسة والعشرين. اعذرني. لم أجد غيرَ هذا التّوصيف لمُتشائمٍ، ميّالٍ إلى العُزلة مثلك. بكل أسف. أكره فيك طبعك الانزوائي وشُحّك في الكلام بقدر ما أعشق غموضك. عالمك غامض وحزين. لست أدري ما أسباب ذلك الكم من مشاعر البؤس. أنت لا ترى سوى النصف الفارغ من الكأس. إلا الأشياء القبيحة. أتساءل ما سرُّ تلك النظرة السوداويّة للأمور؟ لماذا أنت دائماً مُتشائم؟

عزيزي، كم مرّة طرحت عليك هذه الأسئلة؟

لقد كرّرت ولطخت رأسي على الجدار من دون جدوى. لم تكن تُجيب. كنت تصمت وتُحافظ على ذلك الحياد القاتل في عينيك. لقد قتلني سكوتُك الذي يذكرني بسكون مذياع قديم في دُكّان لبيع التُّحف والأشياء الأثريّة. خرس إلى الأبد وأصبح أداة مُسنّة للزينة. أنتَ تفقد مُتعة الحياة. تتحوّل إلى قطعة أثاث معطوبة في كراج خرداوات. تبّاً. تحتاج إلى بعض التهوُّر. معاقرة حياة مُثيرة مثلي. عساك تستفيق وترى الأمور على حقيقتها من دون تشويهاتك التي ترضي بها غرورك فحسب.

أحبُّ أن أقول لك إني أنا، الحياة، جميلة وقوامي ثنائيّات متناقضة. كلٌّ يراني من منظاره الخاص ومن الزّاوية التي تروقه. أمّا أنت فقد نظرت إليّ من ركن ضليل من أركان قبوك المُعتم، فرأيتني فحماً غُرابيّ السّواد، كلّي قبح وشرور وفظاعات. يبقى رأيك الخاص وأنت حُرّ في الأخير. أندهش من ديموقراطيّتي في بعض الأحيان. هاهاها. لكني أمقت هذا الرّأيَ، فملئي خير وأشياء جميلة. أنا صفحة بيضاء من الورق. تُلطِّخها إن شئت بعض زقّات حبر سوداء من أقلام رديئة. شامات سوداء كما عند الغجريّات تثريني. تمسحني بفتنة وكمال. ليس هناك مدعاة أن أكون حياة ميتافيزيقيّة مُملّة في المدينة الفاضلة! تلك المدينة العاهرة التي فتّش عليها أبوك أفلطون والفلاسفة القدامى فما وجدوها ولن

تجدها أنت، وسوف تظلُّ الملعونة وذاك الحلم العبثي ضائعين في السّراب أيها الأحمق!

باص الحياة ينتظر أمام الباب، فاصعد ودعْكَ من الهذيان والتفلسف الزائد عن الحاجة...

وداعاً،

سأشتاقك أيُّها المُتشائم.

تونس

السّبت 31 كانون الأوّل 2016

***

أنا في المقهى المُتّفق عليه قبل الموعد، وهي لم تأتِ بعدُ. طلبت قهوة زفتيّة نصف عصرة ثانية تلتها ثالثة في وقت وجيز. هي مرارتها وحدها ما تحول دون غفوة أجفاني المُتعوِّدة على السّهر مع الأشباح وكائنات اللّيل في سرداب. لقد تحوّلْتُ إلى وطواط. انخرم المُنبِّه البيولوجي في دماغي. وانقلب نهاري إلى ليل وليلي إلى نهار. كنت أدير الملعقة الصغيرة بجنون في قاع الفنجان، أكاد أن أحفر من خلاله. من يراني أذيب كل تلك الكمِّيّة من السّكّر يقول إني أفرغت في الفنجان رطلاً من السّكر. في حين أنّي كنت أشرب قهوتي سادة بربع مُكعّب. لم تأتِ حياة. فوّتت الموعد. دقّت ساعتي اليدويّة والسّاعة العملاقة التي تتزعّم أكبر شارع في العاصمة. إنّها الخامسة! كنت قد أجهزت على علبة سجائر كاملة. انتابني التوتّرُ عندما انتبهت إلى أنّها فرغت. تشوّشت. لم تكن معي علبة احتياطيّة. ارتعشت أطرافي وبادرني المغص والصّداع النصفي كالمُدمنين. أنقذني مجيء بائع متجوّل، نزلَ من السّماء واخترق كراسيّ المقهى المُنتشرة بكل وقاحة على رصيف المارة كالبثور في وجه مُراهق حديث البُلوغ. شعرت أنّي انتُشِلتُ من بئر. كنت على وشك أن أختنق على تلك الطّاولة البائسة. كلّمته. توقّف واقترب منّي. اقتنيت عُلبة سجائر مارس وقدّاحة وصحيفة. قبَض وانصرف. أزلتُ الغلاف الشفّاف وفتحتُ العُلبة.

أشعلتُ سيجارة على الفور. شهقتُ بعمق. نفثتُ سواداً كثيفاً كعادم سيّارة ديزل معطوبة. ألقيت نظرة سريعة على عناوين الأخبار في الصّفحة الأولى للجريدة. تصدّرتها صورة إشهاريّة لمُبيد حشري جديد اسمُه "دراغون". استفزّتني كثيراً. تذكّرت الصراصير التي لا تهاب شيئاً حتّى الغيلان والتّنانين وتهيّجَت عليّ حكّةُ الجلد. طرحت الجريدة على الطّاولة. نظرت إلى السّاعة. إنّها تشير إلى الخامسة والنّصف. كانت عقاربها تعدو بأملي بعيداً. تابعَت دورانها الجنونيّ. أكلني دُوار كأني في دوّامة. غضبت. تسعون دقيقة من التأخير. هذا غير معقول. جزمت أنّها ستفعلها وتتركني ثانيةً. أخرجت رسالة حياة وصورتها التي تخيّلتها لها بعد أن تجري عمليّات التّجميل وتخرج من المصحّة. هممت بتمزيقهما كلتيهما ثمّ عدلت. كنت ما أزال أحبّها. اكتفيت بتكميشها. رجعت إلى الصحيفة بعد أن مزّقت صورة المُبيد. أخرجت قلمي من جيب المعطف. وشرعت في تقليب الصّفحات وفكّ التصاق بعض منها ببعض. كنت أبحث عن صفحة الكلمات المُتقاطعة أصرف بفكّها الوقت. في منتصف الطّريق:

جريدة صوت الحقيقة

25/11/2017

حلق الوادي: جريمة الحاجة سالمة تابع

نجحت الوحدات الأمنية بحلق الوادي (شمال تونس العاصمة)، اليوم السّبت 25 نوفمبر، في تحديد هوية قاتل المرأة المسنّة سالمة التي تبلغ من العمر 86 عاماً وهي أصيلة قرية من قرى أرياف سليانة بحسب مصدر أمني.

الجريمة وقعت يوم 17 نوفمبر الجاري، بعدما اقتحم ثلاثة شبّان منزل سيدة عجوز لسرقتها، وقاموا بضربها بوحشية عندما حاولت مقاومتهم،

ثمّ تناوبوا على اغتصابها، وانتهت جريمتهم بقتلها وبعثرة أثاث المنزل، قبل أن يلوذوا بالفرار.
وبعد تحقيقات استمرّت أسبوعاً تمكّنت الوحدات الأمنية من إلقاء القبض على اثنين من المتورّطين اللذين أنكرا في البداية علاقتهما بالجريمة، لكنهما عادا واعترفا بعد مواجهتهما بالأدلّة والقرائن التي تثبت إدانتهما. أمّا المشتبه فيه الثّالث ومنفّذ جريمة القتل (وهو من ذوي السوابق) فما زال في حالة فرار.

شَعرت بالإغماء. أحسست برغبة مُلحّة في القيء. سألت على مرحاض المقهى فدلّني أحد الزبائن. توجّهت إليه مباشرةً. دفعت الباب ودخلت دون استئذان. لم أدرِ إن كان مُتاحاً أو أنّ ثمة من يقضي حاجته فيه وقتها. لم أطرُق. دخلت هكذا كأني شُرطيّ تلقّى أمراً بمُداهمة المكان. كانت مسألة مستعجلة لا تتحمّل الانتظار ولا اللّباقة. زادتني قذارة المرحاض قيئاً. أفرغت ما في معدتي من زِفت. ثمّ ألقيت برأسي تحت الحنفيّة وأطلقت الماء. ما إن تحسّنت قليلاً حتى أغلقت الفيضان وانهمكت في تجفيف شعري بورق المرحاض. قضيت على كل الأسطوانة. ثم خرجت كصوص. ترنّحتُ عائداً إلى طاولتي. ناديت النادل. جاءني وقد اعتلَت شَفَتيْه الغليظتين بسمةٌ مفتعلة. ما لبث أن تدارك الأمر وتظاهر أنه يكترث لحالي. تكبّد عناء السّؤال عمّا أصابني وإن كنت على ما يرام وهو يقحم فاتورة المشروب في وجهي الشّاحب. اكتفيت بهزّ رأسي. دفعت أجرة فناجين القهوة وقطعة المرطّبات الرديئة. لم أترك له في المحفظة الجلديّة التي وضعها أمامي بقشيشاً لأنّه مُمثّل فاشل. لم يُعجبه الأمر. اصفرّ وجهه. راحت تلك البسمة العريضة وحلّ محلّها فمٌ متجهّم وجبين مقطّب. أدار ظهره وانصرف، يشتم أمّي بصوت خفيض لكن بدا لي مسموعاً. أنا بدوري شتمت أمّه، وقد تعادلنا. سُوّيَت المسألة في كنف الهدوء، من دون تشنّجات. وضعي المُتعب لم يكن يسمح بخوض شجار مع نادل ركيك وضخم. أقفلت الهاتف. نهضت. تناولت الصّحيفة. انتقيت منها

صفحة القضيّة. على الأجندة، دوّنت عُنوان الجريدة ورقم مكتب الاستقبال. أخذت أيضاً اسم الصّحافي الاستقصائي الذي حقّقَ في أحداث القضيّة. كوّرت الأوراق الأخرى بالإضافة إلى الرّسالة المُخرّقة والصّورة بعد أن مزّقتها إلى أشلاء مربعات صغيرة.

بوم عجوز حطّ فوق لاقط هوائي مزروع فوق إحدى الغرف على السّطوح. ظلّ يحدق بي بلا توقّف. نعيب خافت. رقبتُه تدور في كل الاتجاهات. لكأنّه يريد أن يهمس بشيء.

رميت بكرة الورق في سلّة القذارات على الرصيف المقابل، أين تنتمي، ومضيت.

الفصل الأول

الدّغل
قرية الدّخانيّة

لم أعد أبكي فقط عندما يضربني أحدٌ أو حين أفقد شيئاً. أرى النّاس أيضاً يبكون. المجاعة في الرّيف. القحط والحرب.

محمّد شكري، الخبز الحافي

البرّيّة لم تعد كما كانت من قبل (...) فالرّيح التي تقبض على الغيوم من أذيالها (...) لا تحضر إلّا لتعيث خراباً في مضارب العشيرة، والمطر منقطع أو هو شحيح في أحسن الأحوال، والأغنام جفّت ضروعها، وسُبُل العيش أصبحت أكثر صعوبة.

محمود شقير، فرس العائلة

1

لي جدّتي

كانت جدّتي طيّوبة. قلبُها صافٍ وبياضُه في لون القطن. تثور بسرعة وتلتهب أعصابها. لكن سرعان ما تبرد، وكأنها استحمت في العراء بالماء المثلج. لا تلغو مطوّلاً. تحبّ الصمت. لسانها شحيح. لا يغدق في الثرثرة والكلام الزائد. هي دائماً تحملني على ضب لساني داخل حلقي. وتقول لي في كثيرٍ من الأحيان إنه في حاجة إلى القصّ. فأسرع وأواري عنها المقصّ بين كرات الصّوف وكبب الخيوط، بينما تكون هي منهمكة على آلة الخياطة.

كنت أكثر عليها وأسأل وألحّ في السؤال. كلّ يوم. كنت أريد أن أعرف من تلك المرأة التي تطاردني في حلمي. أحياناً أسأل هباءً، فهي لا تجيب في كل مرة. بات صمتها مفزعاً. ولكن كلّما نظرْتُ في ذلك الحياد الوقور في عينيها، ذهب الخوف بعيداً وراء الجبل، ودثرت سكينة لذيذة نفسي المختلجة. أنسى كلّ شيء. أرمي بعقلي الصغير في قيلولة دافئة تخلو من الكوابيس. كان يطيب لي النوم في حضنها المضياف. ألفْتُ تلك العادة منذ الصّغر. أعشق ذلك المكان الجميل. كنت أتكوّر في حجر جدّتي كالجرو. تلفّني بطرف عباءتها الصوفية وتبدأ بهزّ خفيف ولطيف. أستسلم لها وأتخدّر. في بعض الأحيان لم أكن أكتفي بذلك النعيم، بل أتشقلب على جنوبي وأموء متلعثماً بين نوم ويقظة كي أظفر بالمزيد. كانت تضحك على بلادتي وكثيراً ما تصفني بالجشعِ صاحبِ المؤخّرة السمينة. قد ازداد وزني. وثقل على ركبتيها كاهل الهز. عندما تتعب وينال من غضاريفها ألم المفاصل، تتوقف فينة زمان. وقد كانت تعوض عليّ بأن توغل أناملها في فروة رأسي المجعدة، تدغدغها بحنان وتحاول فك تلك اللوالب من الشعر المعقد والمغبر. كان شعري أقبح ما فيّ عن جدارة. هذا لا يعني أنه لا توجد أشياءُ أخرى قبيحة. هي حقّاً وفيرة، إنما أقلّ قبحاً. أنفي

مثلاً. طويل، ومعقوف، ومنخراه واسعان، وتنبت على حوافه شعيرات بغيضة تنبثق في اتجاهات غير متناسقة، يعلق بها الهُلام ويتصلب بينها كالصلصال. لذلك تراني في الغالب، أضع سبّابتي عميقاً في إحدى الحفرتين وأحرّكها دائريّاً لأستخرج من جوفها النخام الخام. ثم أكركب النوازل في بيوض صغيرة كبيوض النمل، وأقذف بها بعيداً أو آكلها إذا ما أغرتني ملوحتُها. كان هذا التصرف يستفزّ جدّتي ويؤجّج غليانها حينما تلقي عليّ القبض وأنا متلبّس. كانت تركض خلفي ما استطاعت أنفاسها ومفاصلها إليّ سبيلاً، وهي تسبّ وتكيل الشتائم ودعاء الشرّ، مردفة إياها بفردة أو فردتين من مشّايتها البلاستيكية التي تقصفني بها من بعيد. في بعض الأحيان كانت تصيب الهدف. في عديد الأحيان، تسعفني سرعة هرولتي وتراجع مهارة جدّتي في التسديد، لتقلص بصرها من وراء غزل الصوف والكُروشّي. "يا فرخ العفن... يا خراء... من أين لي بهذا العفن؟".

جدّتي لا تفهم شيئاً عن الأمر. شعر الأنف يقلقني. وهو السبب في كل هذا الخراء. كنت دائماً أحاول أن أتخلص منه بأن أجتثّه من العروق، إلّا أنّ المسألة ليست بالهينة. نتف الشعر يؤلم كثيراً. عذاب. وهو ضرب من عبث. فكلما اقتلعت شعرة نَمَتْ في كل مرة من جديد. بل تصبح أمتن وأغلظ. اللّعينة. لكن من جهة أخرى، ربحت منها بعض المرح والمزاح الثقيل، بينما نتقاتل جدّتي وأنا في عراك سرمدي حول ترك تلك التصرفات الصبيانية التي لا تليق بابنِ السّنوات العشر ورجلِ البيت.

كان منظر جدّتي مضحكاً وهي مقعية، ترتاح بعد الجري. تلهث. تلتقط صبابة أنفاسها وهي لا تزال تشتم وتسعل. أكون أنا في الجهة المقابلة، تفصلنا مسافة أمان لا بأس بها، أحدّق بها وأتأهب للعدو في أي لحظة أتعرّض فيها إلى هجوم مباغت. كانت شتائمها وكل تلك المصائب التي تنزلها على رأسي، أحلى على قلبي من العسل والسّكّر. تجعلني أقهقه وأضحك من العمق، رغم أن حزناً مزمناً استحوذ على قلبي الذي يشبه أحجية معقّدة تنقصها قطعة ما. كانت ضحكاتي تنبع من الداخل وتتفجر في كل مكان كما الينبوع الجبلي. تموت جدّتي من الكمد وتردّ تواً السلفة من دون تأخير. تقول لي عين الجملة

اللئيمة. ”اضحكْ يا ابنَ الكلب. افتحْ ثغرك العاهر لتبرز أسنانك الكبيرة التي تشبه أسنان الحمير“. ما إن أسمعها حتى ينشفط ريقي فجأة وتنتهي نوبة الضحك الهستيرية. تلتهم القطّة لساني. أقفل فمي بالمفتاح. كانت تعلم كيف تخرسني، وقد جنيت على نفسي. في الأخير، إنّ جدّتي على حقّ. قواطعي كقواطع الأتان. كبيرة. مربّعة. وبينها فجوة عمودية فسيحة. وهي قبيحة كذلك. الخلاصة كنت دميماً وكفى. لكن كما يقال، القرد في عين أمه غزال. كانت جدّتي تلطّف تلك الدمامة. تجامل ما أطاع اللّسان. لا تعيّرني إلّا في غضب. وأكون غالباً وراءه. فيما دون ذلك فقد كانت تقول لي إنّي سَنِيٌّ. وإنّي سأتزوج يوماً بامرأة جميلة. أخلّفُ منها بنيناً في سَنائها. فالرجل رجلٌ بموزته وتينتيْه، لا يعيبه سوى جيبه.

لقد كانت جدّتي تخرِّف. كذبة بيضاء. لأن مثل هذا الحلم بعيدٌ عن أسنان ولد يتيم، فقير وفوق ذلك دميم. كنت مزيجاً جينيّاً من بشاعة وقبح منفِّريْن. لكن رغم كل ذلك كانت جدّتي تحبّني وتحنو عليّ. أنا أيضاً كنت أعشقها. حتّى نفاقُها جميل. كلّ شيء فيها جميل. أعشق فيها كلّ تفصيل. أفتح عينيّ على وجهها وأغمضهما على أناملها. كانت تضع أخراساً فضيّة مدوّرة في أذنيها. كنت أسمّيها ذات الحلقات، نسبة إلى تلك الدّوائر الكبيرة التي تزيّن بها تمرتَي أذنيها. نظّارتها مدوّرة الفصَّين هي الأخرى. بلّورُ الفصّ الأيسر مشقوق من الطّرف. تجوبه خدوش كثيرة تمتدّ إلى وسطه. كنت دائماً أهجوه. وأقول لجدّتي إنه بات غير صالح وبلا نفع. بل إنّه يعكّر الرّؤية، وقد يسقط بصرها. لكنها ترمي بهجائي وحرصي عرض الحائط. عزاؤها أنّه الأيسر. حتى إنّها تستغني عنه أصلاً في بعض الأحيان. تنزع البلور الأيسر. وتترك النظارة عوراء بفصٍّ واحد، ثمّ تواصل الخياطة وحياكة الصوف. كانت جدّتي خيّاطة مُحترفة ولكن ليس لها محل خاص بها. تشتغل على ماكينة قديمة إيطاليّة الصّنع يعود طرازها إلى عهد الحرب، في ركن قرب نافذة الكوخ. يداها من ذهب، تُخرِج الجمال من أشياء متواضعة تالفة، المزبلة أَوْلى بها. جدّتي كانت إلهة. إلهة الجمال البسيط. لم تكن شهرتها، كخيّاطة، منقطعة النظير في القرية، لكن حريفاتها القليلات يخرجن من كوخنا باشّات مُبتسمات ويرجعن في مناسبة

أخرى في الغالب، وهذا دليل على أنّ سمعة جدّتي في عملها مرضيّة وكفى. لم تكن فتيات قرية الدّخانيّة ونسوتها، يفقهن أو يقدّرن معنى الجمال. كنّ قبيحات وبشعات وذوات ذوق متدنٍّ. وجوههنّ مُدخّنة مُسودّة كالدواليب المطّاطيّة، فهنّ بنات الدّخان بعد كل شيء. كثيراً ما كنّ يحترزن على خيارات جدّتي في الألوان والموديلات لأنّها في نظرهنّ رتيبة ومتأخرة لا تواكب الموضة ولا تتماشى مع الأعراس والمسرّات المزمع حضورها، فقط لأنّها مُحتشمة، وتجنح إلى الألوان الوقورة من أسود وبنّيّ وأزرق بحري يليق بالحفلات. كنّ جامحات في القبح والفجاجة في كل شيء. كما كانت جدّتي تقول غاضبةً إثر رحيلهنّ: "لمن تكحّلين يا امرأة الأعمى! اللّعنة على ذوق قميء كهذا!".

كانت اختيارات سمجة وغريبة الأطوار يملينها على جدّتي التي تنافقهنّ وتجاريهنّ في قبحهنّ وشذوذهنّ على مضض لأنّنا كنّا بحاجة إلى المال.

لقد كنّ سمجات في كل شيء. وقد كنت أكرههنّ. إنّهنّ يُغضبن جدّتي كثيراً ويجعلن قلبَها ينتفخ. كنّ فظّات. لكن جدّتي التي كانت تختبئ وراء قناع الخيّاطة ونفاقها، كانت تمسك على الجمر وتحتمل، من أجل تلك القروش الثّمينة، التي نستعين بها على أمر طعامنا وشرابنا ونفقاتنا اليوميّة.

أكثر حريفة كنت أكرهها هي نسيمة بنت زهرة، جارتنا. كانت الأركّ والأسمج والأقبح لكنها كانت الحريفة المبجّلة لدى جدّتي. لم تكن هي، بذاك الشعر المنكوش والأنفِ المفلطح والفمِ الواسع وكلّ تلك الأسنان غير المنتظمة التي تركب بعضها بعضاً والصّوتِ المرتفع عندما تضحك أو تتحف جدّتي بنكتة داعرة بذيئة، تستحقّ ذاك التّبجيل وتلك المعاملة الخاصّة. إنّما لم تكن شحيحة مثلهنّ. كانت تبذّر نقودَ أبيها تاجرِ الخضار، على منتوج جدّتي وتشتري كلّ شيء تقترحه عليها من دون نقاش وطول حديث في مسألة السِّعر. كانت مهووسة بالزواج. في سبيل ذاك الوهم الوردي، تقبل على أي شيء من ماعون وأثاث وأغطية وحشايا. كيف ما كان. تكنزه في الجهاز. جهازها كان كافياً ليغطي ويطعم كل أهل القرية في سباتهم طوال فصل الشتاء لمدّة ثلاثة مواسم متتالية. وقد كانت جدّتي تستغلّ هلوستها بالرجال وهوسها بالزواج كي تلصق

فيها الأغطية الصوفيّة الثّقيلة التي تنسجها على الـ"سدّاية"، وترتاح من عبء ترويجها. كانت بضاعة أصليّة، ذات جودة، إلا أنّها غير رائجة لوزنها الثقيل مقابل البطّانيات الوبريّة المهرّبة من الحدود مع الجزائر التي أغرقت الأسواق. في حالة إخفاق جدّتي في تلفيقها لنسيمة العروسة – كما يحلو لها أن يجاملها أحدهم – تضطرّ أن تنزل متعثرة إلى البلدة على الأتان المُسنّة، يوم السّوق الأسبوعيّة كي تبيعها، بنصف ثمنها، إلى تجّار بُخَلاء ودواهٍ. فهم يعلمون أن عجوزاً نزلت بهذا الحمل الثقيل فوق أتان ما تزال تئِنّ والسّوق تكاد تنفض، لن تعود بها مرّة أخرى إذا لم تبَع.

بطانيات جدّتي مفرطة في الوزن جدّاً كسندان الحدّاد. كانت منسوجة بإتقان شديد من صوف كباش فحول ثخن ورفيع. لم تكن جدّتي غشّاشة قطّ. تمضي أشهراً بعدّتها على جلد شاة وخرق قماش قديمة وراء المنول تنسج خيطاً خيطاً، كأنثى العنكبوت، إلى أن يعلو نسيج الغطاء على الشّبكة شيئاً فشيئاً. فما إن يعلو كفاية حتى تهوي عليه بـ"الثّقيلة"، فيسقط مقزّماً، إلى الدّرك الأسفل من المنسج مرة أخرى. ويتراصّ الغطاء الصّوفي هكذا. ويثخن حتى ينقلب إلى رزيّة ثقيلة لا تليق إلّا بنسيمة وعريسها المسكين، الذي سوف يتحول إلى فطيرة تحت الركام، تحت كل ذاك الكم من العبائن التي تكنزها له في جهازها.

في صباح أحد أيام الآحاد، وهو يوم عطلتها الذي ترتاح فيه من معمل المعكرونة بالبلدة أين تشتغل، جاءت تلك البنت كعادتها لتتفقّد جديد جدّتي وبضائعها وتبذّر راتبها الأسبوعي. كانت جدّتي مشغولة بنثر الحب في قنّ الدجاج وإطعام العنزة. عندما رأتها تركت من يدها كلّ شيء، وهرعت تستقبلها بالترحيب والتهليل والمديح والمجاملات. كنت أنا في هذه الأثناء، تحت التّينة، قد توقّفت عن قذف العصافير والعضاءات بالحجارة وتفرّغت للاستغراب كيف تنافق جدّتي بهذا الشكل القبيح وهي ذات المقام العالي. مرّت قبالتي، أنفُها في السّماء، وقالت لي بكل ركاكة: "مرحباً يا ولد. ماذا فعلت لك العصافيرُ لكي تؤذيها؟". طنّشت. وتجاهلت ترحابها ونهيها معاً. أقبلَت جدّتي تلوّح بيدها اليسرى وتؤرجح رأسها قائلة: "دعكِ منه يا ابنتي، هذا الولد

سيصيبني بالجنون“. ”أنا ولد؟ كمان أنتِ يا جدّتي؟“. لم أعد رجل البيت. اعترضت على الكلام وانتقاص الرُّجولة. فضحكتا عليّ ساخرتَين، ثم ضمّتها إلى صدرها واقترحَتْ عليها أن تدخل إلى الكوخ كي تجرّب ثوبها الجديد بعد اكتمال التعديلات المجرية عليه. غضبْتُ. ركضت بعيداً من سخرياتهما في أثر يربوع صغير خرج من أمامي فجأة، وتوارى في طرفة عين بين الحشائش. استدرت خلف الكوخ. تسلّقت شجرة الكلتوس وركبت أحد أغصانها الممتدّة والصّلبة كي أصل إلى السّطح من دون أن أحدث جلبة. شرعت أسترق النّظر من نقْبٍ أحدثه الصدأ في صفائح السّطح المعدنيّة. كنت أعلم أنّ ما أقوم به عيب وحَرام. جدّتي كانت تقول لي إن هذا يسمّى تجسّساً. وإنّ المتجسِّس قليلُ أدب وآثم. لكني أفتيت بالتحليل إذا كان المُتجسَّس عليه فظّاً وبغيضاً كنَسيمة. ألصقت عينيّ بالثقب وطفقت أتابع كلّ شيء. بدت الفتاة كأنّها باكية وجدّتي تهوّن عليها وتهدّئ من روعها. كانت تقبِّل يد جدّتي وتقول لها: ”يا خالتي والله أنتِ في مقام المرحومة أمّي. وأعلم أنّي أحكي لنفسي وأنّك تعرفين كل شيء صار ولا يعلمه سوى أنت وأبي وأمّي في قبرها“. ”ولو يا ابنتي؟ سرُّكِ تحت التراب“، أجابت جدّتي. ثمّ أضافت أنّه سيأتي مكتوبها وتتزوّج خيراً من ذاك النذل الملعون لأنّها طيّبة القلب ودرويشة وعلى نيّاتها، وأنّ بخت يدها مُشرق (جدّتي تقرأ خطوط الكفّ أحياناً).

تحدّثتا عن رجل، تعرّفَت عليه في المصنع، كان يشتغل سائق شاحنة ينقل بها أكياس المعكرونة والمعجّنات الأخرى ليسوّقها للدّكاكين والمغازات في العاصمة. وأنّ هذا الرجل متزوّج وليس له أبناء. ضحك عليها بأن قال لها إنّه على أبواب طلاق من زوجته وهو ينوي خيراً. تبعته كالدّمية البلهاء حتى نال مراده وذاب كفصّ ملح. ومنذ ذاك اليوم لم تعد تراه ولم يعد يردّ على مكالماتها من الهاتف العمومي وعلى رسائلها. بل إنّه لم يعد يشتغل أصلاً في المصنع. اختفى هكذا بين عشيّة وضحاها كالشبح. بكت وقالت إنّها خسرت كلّ شيء. وإنّ أمّها ماتت بغصّتها. وبأنّ أباها قد جلدها جلداً مبرّحاً، وحملها على ترك الشغل ونسيان أمر مسألة الشكوى والمحاكم. لُفلفت الحكاية ودفنت برمّتها في قبر، درءاً للفضيحة وخوفاً من كلام النّاس الذي لا يرحم أحداً.

ضجرت وأصابني الملَل. لم أفهم شيئاً وكانتا تتحدّثان بالألغاز. حكاية للدّفن ومصنع عجين وشاحنة معكرونة، سائق شاحنة ملعون لعب بدمية نسيمة ثمّ سرقها الوغد واختفى فعاقبها أبوها على ذلك بأن ضربها ضرباً مبرّحاً وها هي تنشج. شيء مقزز. هممت بالنزول قبل أن أتنبّه إلى أن نسيمة أخذت تنزع أدباشها وجدّتي تناولها حُلّتها الزرقاء الجديدة. ارتبكْتُ. أغمضت أشفاري. ابتلعت ريقي. أدخلت عنوةً نفساً عميقاً إلى صدري الذي يضيق. أحسست بموجة من العرق السّاخن. كنت على وشك أن أنطّ إلى الكلتوسة مجدّداً غير أن صوتاً ما رنّ في أذني فجأةً وقال لي: "جبان! مكانك أيُّها الغرّ! يجب أن ترى ما يراه الرجال".

تصلّبَت ساقي في مكانها كأني تمثال مثبّت في قاعدة أسمنتيّة. لم أشعر كيف استدرت وعدت إلى فرجة السّقف وألصقت عيني بها. كانت نسيمة عريانة إلّا من بعض القطع الشّفافة. كدت أبتلع لساني. كانت أرى قفاها من تلك الزاوية الحادة. وكان ظهرها مثقلاً بخطوط سميكة داكنة ومتوازية تقطعها عدّة خطوط أخرى، فتكوّن شبكة. أردفَتْ هي لجدّتي بأن قالت لها: "انظري آثار السّوط يا خالة". عجبت لأمر هذه الرّسمة الغريبة. كانت تلك أوّل مرّة أرى فيها فتاةً عارية. تساءلت إن كانت كلّ النساء يمتلكن شبكات كشبكة نسيمة على ظهورهنّ. زاد العجب، وكان سيغمى عليّ عندما خلعت الفتاة بنطالها الدّاخلي وبرزت تلك المؤخّرة السمراء الهائلة في هول ردفَي فرس النّهر. كانت ضخمة جدّاً كمنطاد كروي منتفخ ومفعم بالهواء السّاخن. تلمّسْتُ مؤخّرتي التي بدت نحيلة وضامرة كأنّي نسيت نصفها في سروالي الآخر بعد أن غيّرته عقب الاغتسال. لم أحسّ قطّ بنحول مؤخّرتي إلى هذه الدّرجة قبل أن رأيت مؤخرة نسيمة العملاقة. على عكس ما كانت تقوله جدّتي بأنني صاحب ألية كبيرة ومشحّمة كألية الكبش. ازدحمَت في ذهني أفكار كثيرة واندفعت تتهمني بانتقاص في الرجولة. فهمت لماذا تسخر مني دائماً تلك الفتاةُ الفظّة وتنهرني وتنعتني بالولد. لأنّ مؤخّرتها كالفيل. ويمكنها في طرفة عين أن تجلس عليّ وتطحَنَني كخُنفساء بائسة. عدت إلى استراق النّظر فانتبهت إلى أنّها ازدادت ضخامةً في قماش الثّوب الأزرق الذي أرخته عليها.

فاضت الزُّرقة في كلِّ مكان كأنّها البحر. واختنقت أنا الحشرة الصغيرة مطموسة الرّجولة. سبحت في ذاك البحر الهائج متلاطم الأمواج وتذكّرت أنّي لا أجيد السّباحة وأنّي غارق لا محالة. لم أشعر كيف انتفخَتْ بنيّتي الخجولة وكبرت بين فخذيّ في حركة لم أفهم سرّها. انتفخت وارتخت. فتنّفست الصّعداء ثمّ انتفخت من جديد وبقيت هكذا يابسة لا تريد أن ترتخي! أصبت بالذعر وانتابني الهلع. لم أكن أفهم ما يجري لي في تلك اللحظات. ما زالت مؤخّرة فرس النّهر تكبر وتتعاظم ملء الكوخ. أحسست أنّي أختنق تحت زرقتها وأسحق كصرصور ضعيف. احتقن صدري وانقطع عن رئتيّ الهواءُ. بنيّتي تؤلمني كثيراً وهي منتصبة كقطعة خشب. لم أكن أعي من يعبث بجسدي على هذا النحو ويرمي إلى كسر ضلوعي. ما هذه اللّعبة المخيفة والمرعبة؟ وقفت مترنّحاً يأكلني الدّوار ويحتلّني بالكامل. تراجعت في اتجاه الشّجرة وأنا أشعر بالقيء. ارتميت على الغصن المديد جثّةً مغمىً عليها وتمسّكت بقوّة، فتكسّر وهويت بعنف على الأرض، وأطلقت صرخة فزع ارتدّت إلى داخل الكوخ.

أقبلت جدّتي مستنفرة وخلفها نسيمة في ثوبها الأزرق وخلفها المنطادُ الضخم. لم أنعم بقليل من الهواء النقي أسحبه بأنفاس عميقة متلهّفة قبل أن يعاودني احتقان الصّدر. قالت لي: "ماذا كنت تفعل فوق الشّجرة أيُّها الولد المشاغب؟"، بينما كانت جدّتي تجسّ كل شبر من بدني وتتأكد أنّي بخير ولم يشجّ رأسي أو تُكسَر عظمة من هيكلي. من حسن الحظ سقطت على العشب المبتلّ، وكانت التربة ليّنة فلم أُصَبْ بسوء، وكان لجدّتي ما أرادت، وخسرت أنا الشّفاعة. وبالتالي جرّتني من أذني إلى داخل الكوخ. أحكمت وثاقي إلى رجل الخزانة الخشبيّة من كعبي، كما الجديان الأشقياء. ثمّ جلبت حقّة من المطبخ وطلت لي فمي وعيني بالفلفل الأحمر.

كان كلّ هذا يدور أمام ناظرَيْ نسيمة التي واصلَت في خضمّ الأحداث المؤلمة نوبةَ ضحك من دون مكابح، فيما كانت مؤخّرتها الزرقاء تهتزّ وترتجّ وتزداد ضخامةً أكثر فأكثر، فتقطع عليّ أنا الهواء.

2

حساء الخضار

طبيخُها فيه سرّ. لم تكن جدّتي لتُفشي أسرار مطبخها ووصفاتها السّحريّة. لكنّي كنت متأكّداً أن هناك شيئاً ما يكمن وراء تلك الرّائحة الشهيّة التي تنبعثُ من مطبَخها، ومن ذاك الطّعم اللّذيذ في كل طبق على حدة. بعد الأكل، لم تكن الصّحون تتطلّب الغسيل. كانت تبدو ناصعة البياض كأنّي لم آكل فيها حتّى. كنت أمسحها جيّداً بقطع الخبز وأدعك جيّداً حواف الصّحن، وأحياناً ألعقُه، فيغدو مبيضّاً ذا لمعان. كانت جدّتي، إذا كان غداؤنا شحيحاً وأقفرت الخابية، تحثّني على واجب إكرام الصّحن.

ما دونه كانت جدّتي تستنكر نهمي الرّهيب قائلةً: "بسمل يا فتى وضعْ ربي في بالك! أيأكل معك الشّيطان؟".

كنت أضحك. أواصل الأكل بسرعة كأنّي أتسابق مع أحد غير مرئي يقابلني على المائدة. كانت جدّتي تزدري نهمي وهتكي لطقوس وآداب مائدة الطعام. كنت أجهزُ على محتويات الصّحن في زهاء دقائق معدودات، وأطلب المزيد.

– الشّفاعة! هذا الطّفل مُدوّدٌ أو مسكون بالجنّ!

تتذمّر جدّتي وهي تنهض مطلقةً آهات تعب لجلب القِدْر التي كانت تغطّيها بالقصعة المعدنيّة الكبيرة كي يسلم من أضراسي إلى وقت العشاء. كانت جدّتي تقرأ حساباً لكل هذا، وتطبخ كميّة أزيد عن حاجة شخصين، آملةً أن تَترك منها نصيباً للعشاء. قد كانت تكره الطّهو بعد غروب الشّمس، على نار موقد فاترٍ وهن، فيمتزج الملحُ بالسّكّر وتحترق الأصابع.

تنضب القدر المتوارية، في معدتي، ملعقة تعقب ملعقة. ثمّ أنظر إلى جدّتي، فتجحظ عيناها وتتّسعُ حدقتاها، ويقترن حاجِباها وتتوالد التجاعيد في جبينها ويستدير فمُها ذُهولاً، وتضع كفّيها على قحفها.

كان كلّ شيء تطبخه جدّتي يعجبني. لو تأخذ طوبة قاسية من أرض جرداء وتطليها بالبهار وأعشابها السّحريّة ثم تطعمني إيّاها، لازدردْتُها ولعقْتُ أصابعي. شيء عجيب. طبيخ جدّتي لا يقاوَم، ولعابي يسيل في كل مرّة أنتظر على نار أن يجهزَ طعامُها. كنت كلّما زقزقَت عصافيرُ بطني أسألها إن حَضَر الأكل أم لا، وإن كان ذلك كلّ دقيقة. وقد كانت في كل مرّة تجيبني الجواب نفسَه: "اصبر قليلاً، إنّه في كُلفَة البابور". إلّا أنّ العصافير تستمرّ في التّغريد والصّياح كأنّها طيور جارحة. لم أكن أطيق صبراً. لم أكن أتحمّل فيضان عصارة معدتي الشّرهة. كنت أمسكُ على مغص بطني الجائع وأطرق أتلوّى على الحصير كالقاطور. تشفقُ عليّ جدّتي، وتأتي بصينيّة الأكل قبل الأوان وإن كان يستحقّ بعض الدقائق الأخرى كي ينضج على التّمام. لا تناولني الطّبق قبل أن أرضخ إلى أوامرها وتحذيراتها. أوّلاً وقبل كلّ شيء غسلُ اليَدَين وتخليل ما بين الأصابع جيّداً بالماء والصّابون لأنّ دود الأمعاء يأتي من وَسَخ الأيدي. في كل مرّة، كانت تفشل مناوراتي وأعذاري، من قبيل "غسلت منذ قليل" أو "اليوم لم ألعب بالتراب قطّ"، التي أسردُها على جدّتي التي تنتصب في حزم كالمارد أمامي رافعة الصينيّة فوق رأسها، ترشقني بعين صارمة وحاجبَين مقطّبَين، تكذّب كل ما قلته من ترّهات. لا أصمد طويلاً في وجه تأنيبات جدّتي، وهجاءاتها، وأدعيتها، وركلاتها الخفيفة على مؤخّرتي، وسبّابة يدها اليمنى التي تشهرها في وجهي كمُديَة حادّة. أقفز فجأة كالبرغوث. أتّجه مُتذمِّراً صوب قصعة الماء وأباشر في طقوس غسل اليدَين برغوة الصّابون حسب سنن النّظافة التي حفّظَتْنيها. أمسح يديّ كما اتّفَق في منشفة أو أيّة خرقة قماش. أنطّ متقافزاً في اتّجاه الوليمة المتعالية في السّماء. كانت تمتعض وتتقرّف إذا ما بقي بعض الدّرن الأسود أو بعض التراب عالقاً تحت الظفر. تعاود إرسالي إلى الغسل. أرضخ، دون أن أجادل. إنّي أتضوّرُ جوعاً. مسمار لعين مدقوق، أسفل موسّط الصّدر.

بعد فينة زمن، أسلخ فيها جلد يديّ سلخاً وأغسله بالصّابون أعود وأنا أموء كالقُطيط، لأخضع لاختبار كشف الوسخ من جديد. تعاود جدّتي الفحص بالدقّة ذاتها، وعلى مهلٍ قاتل. ثم نتربّع متقابلين. نُبسمل. تقرأ جدّتي صلاة الطّعام. ثم

تأذن لي أن أشرع في الأكل. أنقضُّ كالجرو على الجفنة وأباشر أزدرد اللّقمات بشراهة، كأنّي كنت قد صُمت الدّهر دون سُحور. في الجهة المقابلة، تحافظ جدّتي على وقارها وزهدها في الأكل.

إنّ حساء جدّتي مع بيض الدّجاج المسلوق والزّيتون الأخضر المُملّح، لا يقاوم. كنت أنا أتناول أربع ملاعق، وكانت هي تتناول ملعقةً واحدةً. ترفعها في تأنٍّ إلى فمها الصّغير. وتظلُّ تلوكها وقتاً طويلاً. ثمّ تجترّها. تتحجّج بأنّ فمها مهدوم، وأسنانها تؤلمها. وأنّ سنّها وصحّتها لا يسمحان بأكل أصفر البيض والدّهون. في حين أنّها كانت تكابر. كانت تكابر لي في كلّ شيء وتُؤثرني على نفسها في أبسط الحوائج وفي أي ظرف كان. جدّتي طيّوبة. أقسمُ أنّها أحنّ من نعومة الحرير. أحنّ من قُبّرة على فراخها في العشّ. قلبها كبير يسع الكونَ وكلَّ ما عليه وكلَّ من فيه.

أمّا سرُّ وصفة الحساء ذي الرّائحة الشّهيّة والمذاق العذب والسّحر العجيب فهو الخضر الطّازجة حديثة القطف. جدّتي ترفض شراء الخضر وثمار الأرض من السوق. خضار البراريد والبيوت المكيّفة بذيئة الطّعم. كنّا نأكل من منتوج ضيعتنا الصّغيرة. كانت جدّتي تغرس الخضر في أحواض خلف الكوخ، وتحصّنها بسياج من الصبّار المقطوع، وتنصّبني، أنا رسميّاً، حارس الجنّة والمسؤول الأوّل على أمنها من نقر ونبش الدّجاج وسرقة الجديان الشقيّة وبول كلبنا الغبي وبرازه.

كانت تزرع بساعدها، بالاستعانة ببعض الأدوات البسيطة وبعض السّماد. كلّ شيء ينبت. تتسمّق البراعم. وتنبثق حيوات نباتيّة كثيرة من التّراب، وتزهر. ثمّ تُثمر أطياباً ورغيداً. نأكل منها، جدّتي وأنا، البطاطا والجزر واللّفت والفجل والبقدونس والنعنع والسّبانخ والفلفل والطّماطم، وغيرها من ثمار الجنة البَعلية البسيطة. كنّا نأكل ما تبذره أيدينا لأنفسنا فقط. وكنّا نسمي تلك الأحواض المتلاصقة والمتجاورة بالحواف "رقعة الشّطرنج" نسبةً إلى تلك المستطيلات والمربّعات التي تأخُذ شكلها أحواض المزروعات. وبالتالي، مع بعض القطرات من روائح ومنكّهات جدّتي، المستخرجة بدورها من الأعشاب البرّية المجفّفة، وزوج بيض مسلوق جادت به دجاجةٌ عربيّة معطاء عن طيب

خاطر، دجاجةٌ رياضيّة لا هي مسمّنة بالأعلاف المركّبة والسّموم والمكمِّلات الغذائيّة الاصطناعية، ولا هي مسجونة في المداجن، ترعى وأخواتها من معطف الأرض الأخضر، أضف إلى خليط من حب وعطف الأمّ والجدّة في آن واحد، ورشّة حنِّيّة من بئر حارة في باطن قلب صادق، حتى يغدو ذلك الحساء، حساءُ الخضار، حساؤنا السِّري، حساءُ ذكريات الطفولة، ليس مجرّد أعذب حساء قد يتذوّقه لسان، إنّما قَطعاً، ومِن يدَي جدّتي ربّةِ البساطة، هو إكسير السّعادة الأبديّة.

3

الماء الأصفر

لقريتنا ماؤها الغريب، الغريب في كلّ شيء. ونحن نشربه كلّ يوم، على الرّغم من كلّ تلك الغرابة.

من المعقول أن الماء سائل شفّاف، لا لون ولا طعم ولا رائحة له.

أمّا ماؤنا، فهو أصفر فاقع كالبول المُركّز ورائحته كريهة كرائحة الجيفة. نحن القرويّين نشربه، البول، كي نُطفئ العطش. لذلك نحن لا نرتوي مهما شربنا.

كنت أستغرب كثيراً من لون الماء الذي نشربه. وإن كان له دخل في لون بولنا، فكلا السّائلين يتقاسمان الصُّفرة نفسها. سألت جدّتي. أحياناً كانت تجيب، وأحياناً تتجاهلني لأنّها كانت قد أجابت من قبلُ.

– إنّه الكبريت. نقطة على السّطر.

جدّتي لا تحبُّ التّكرار واجترار أشياء قالتها من قبل. هي هكذا قليلة الكلام.

– وما الكبريت؟

كنت أسألها مباشرة بعد جوابها، إلّا أنّها لا تتعمّق في شرح التّفاصيل.

أذكر مرّة قالت لي إنّ الكبريت يستعمل بعد التّكرير في صناعة أعواد الثّقاب، تلك التي نوقد بها النّار، لنتدفّأ ونطبخ الطّعام.

نار تخرج من الماء؟ أليس الماء ما يخمد النّيران؟ غريب. اختلطت عليّ الأمور.

هذه الأسئلة كانت تعبث بعقلي كلّما شربت كأس ماء، ورأيت الأجسام المترسِّبة في القاع. وظلّت هكذا في عبثها، بين مدّ وجزر، تزيدني في منسوب الحيرة، إلى أن ذهبت مع جدّتي، ذات يوم، أوّل مرّة، إلى العين المُكبرتة في الجبل.

دأبت جدّتي على جلب الماء من العين، مرّة في الأسبوع، كلّ يوم سبت. عندما أصبح عمري ثماني سنوات أصبحَت تصطحبني معها كلّما ذهبت إلى

هناك. أخبرتني أيضاً أنّها، عندما كنْتُ رضيعاً، كانت تجلب الماء وأنا مُقرّط على ظهرها.

الطّريق إلى تلك العين المَلعونة وعرة. كنّا كلّما توكّلنا إليها، متى انبلج الصّبح وأطلق الجبل شمسه التي أكلها بالأمس، نُعدّ العدّة كأنّنا مُسافرون. السائرون من أجل الماء. العين قصيّة، في هاوية، وراء الجبل.

تنهض جدّتي باكراً. تتوضّأ. تصلّي صلاة الصّبح وتقرأ ما تيسّر من القرآن وأدعية الاستفتاح. تعدّ لي الفطور. توقظني. أبتئس. السّبت عطلة آخر الأسبوع. لا أذهب إلى المدرسة. أتلذَّذ النّومَ العميق. أُلكَزُ على عقب رأسي. أحياناً صفعة على إستي. أتبوّل وأتغوّط. أغتسل. آكل ما تيسّر، على عجل، ريثما تُعدّ الأتان. تختم بدُعاء السّفر. ونمضي.

كنّا نبكرُ إلى هناك، كي لا نجد أي أحد. إذا انتصف النّهار يتشكّل طابور مُقلق بلا نهاية. طابور كلُّه وجوه مشؤومة لا نُحبّ أن نراها. تُخَرّبُ اليوم. الخالة هنيّة وابنتها الكبرى حوريّة تعوّدتا مُرافقتَنا في أسْبات عديدة، لكنّهما لم تعودا تستطيعان مُجاراة جدّتي في الإبكار. رضيتا بالانتظار لساعات في ذاك الطّابور الطّويل. لم نرضَ نحن. لم ترضَ جدّتي وهي صعبة المِراس. لم يكن لنا أصدقاء في القرية غير خالتي هنيّة وابنتيها. زوجها، عم عبد السّلام، كان يشتغل في الجنوب، مدينة قابس، عامل مناجم. ينقب على الفُسفاط. هكذا هي الحال منذ سنين. يغيب أشهراً. يعود إلى بيته عندما تحلُّ مُصيبة. في الجنائز. أو في عيد الأضحى. سمعت ذات يوم، بينما كنت راكباً على ظهر الأتان وشوشةً بين جدّتي وخالتي. كانتا تتهامسان:

– لماذا لا يأخذكنّ معه إلى الجنوب؟ ما هذه العيشة الكلبة؟

– يقول إنّنا سنمرض من غُبار الفُسفاط والسّموم. يخاف على البنات. سيُطالب بالتّقاعد عمّا قريب.

– تفو. يلعن أبو الفُسفاط... لا يكون تزوّج عليكِ!

تردف جدّتي ضاحكةً ساعلَة.

لم نكن نمشي أعزلَين. وحدنا أو معهما. جدّتي كانت تأخذ معها بُندقيّة الصّيد محشُوّة، وخراطيش إضافيّة. أثناء المسير كانت تتوقّع الخطر. هوس جدّتي

بالخطَر. كانت تضعها على كتفها اليمنى. تخفيها إذا بلغنا مشارف العين تحت إكليم البَرْدعة وتُزلق الخراطيش في صَدْرها.

برفقتهما، أركب وراء حوريّة على ظهر أتاننا. فوق "البّادين"[2] البلاستيكيّة، متاعنا ومتاعهما. كنت أتشبّث جيّداً. أدير يديّ على خصرها، وأُحكم. أخبرتني مرّة، ونحن سائرون قبل بزوغ الشّمس، أن العين مسكونة بالجنّ. وأنّ حرّاساً من العفاريت يُطوّقونها في اللّيل. لا يسمحون لجنس مخلوق بالشّرب قبل أن يُضيء الجبل. ومن يشرب الماء المُحرّم يموت. قالت لي ذلك وهي تُشير إلى جُثث الضّفادع المنتفخة وجيف الفئران على حافة المَسلك. أحسست وقتها أن قلبي قد سُرق من قفصي. والفزع يدبّ في دمائي. ألهث. أرتعش. أضغط على خصرها. ألتصق أكثر. كُرة في حلقي. مغص في بطني. بلّلت مرّة سروالي. تقيّأت أخرى من رائحة الماء والجيفة.

2 قِرب الماء.

– حوريّة كفى! اتركي أخاك الصّغير وشأنه.

تضحك الماكرة وتقهقه. أفشل في محاولة إسكات ضحكاتها المخبولة. تتردّد قهقهتها في الفراغ. في الجرف الكبير.

– اصمتي يا حوريّة. ستسمعنا العفاريت. سوف تأكلُنا. سوف تُحاسبُنا على اقتحامنا عينَها المُحرّمة. قرابين نحن.

لكنّها لا تتمالك نفسها. تمسك على يديّ وشحم بطنِها ممتلئ. يتأرجح اللّحم والشّحم من الضّحك. ثمّ تدُجّ في جيوب سروالي ومعطفي المُشمع أشياءَ: تمائمَ، حُروزاً من الملح، البصل، الثّوم، وسيقان دجاج. قالت لي إنّها تطردُ العفاريت والأرواح الشرّيرة.

عندما كبرت قليلاً أصبحت بشرتي دهنيّة مُزيّتة. وغزت وجهي بثورٌ مُحمرّة مُتقيّحة. اخشَوشن صوتي. توتّر مزاجي. تعكّر. تورّمت حلمتاي. غدتا تؤلمان. أصبحت بُنيّتي تنتفخ من تلقاء نفسها، خاصّة عند النّهوض من النّوم. وبيضَتا الحمام كَبرتا. تزَغَّبتا. وباتتا تُؤلمان أيضاً. لم أكن أفهم ماذا يجري. لكنّ جدّتي والخالة هنيّة منعتا عليّ الرُّكوب خلف حوريّة على ظهر الأتان بعد تلك الحادثة.

كانت حوريّة تمزح معي مُزاحها الثّقيل، ذاك الذي يدور حول الجنّ والعفاريت. كنت قد تعوّدت تلك المَواضيع. لم تعد تُخيفني، وتبثّ في قلبي الرُّعب كما كانت من قبل. لكن تزامن وقتها كلامُها مع حركة في السّباسب على مقربة منّا، وقد كان ثَعْلباً لعيناً. لم أشعر كيف قبضت على حوض حوريّة، وأرجعتُها إليّ بعنف. كنت أرتجف. سقطت القوارير من القفّة. أحدثت جلبة. التصقْتُ في أسفل ظهرها. انتصب الشيء بين فخذيّ. وتبوّلت عليها بولاً لزجاً لذيذاً من الخوف! لم أكن أعي ما ارتكبت. كنت قد تبوّلت على حوريّة كثيراً من المرّات وأنا صغير. لكن تلك المرّة، كانت غير كل تلك المرّات.

في البيت، أنّبتني جدّتي على غير العادة عندما غسلت بنطالي الدّاخلي من البول اللّزج كمخاط الحلزون.

”لا يَجوز. أنت كَبرت. أنت كَبرت ولا تزال تُبلِّلُ بنطالك وفراشك... بوّال على نفسك. لا يَجوز!“.

هكذا عاتبتني جدّتي من دون سبب. وهي تعلم أنني فزعت من الثّعلب الذي قفزَ أمامنا. كما أنّ قصص حوريّة على العفاريت مُخيفة جدّاً. غريب. وبّختني. وَمُذّاك، لم أعد أركب قطُّ خلف حوريّة. ولم تعد تُرافِقنا إلى العين.

نصل هناك، فتستقبلنا الرّائحة العفنة ونقيق الضفادع. تنبعث من بركة راكدة، ترشح بالجيف وزبل الأبقار وروث الحمير. ترتبط تلك البركة بمجرى جدول ضيِّق، تنمو على ضفافه المتقاربة، حشائش طفيليّة وشُجيْرات دفلى. الخنازير الوحشيّة تختبئ بين الأشجار، وتشرب من ذاك الجدول. في الصّيف تجفّ الأرض. ينخفض منسوب المياه. يضعف تدفّق العين. تتقدّم الخنازير. تشرب من المزراب. أو من البركة بالأسفل.

عندما كانت ترافقنا حوريّة، كنّا ننتظر، أنا وهي، مع الأتان في رأس الهضبة. جدّتي والخالة هنيّة تنزلان إلى العين لتعبئة الأوعية. إذا نزلت الأتان المنحدر، فإنّها لا تقدر أن تصعد بالحمل. انكسرت قائمتها الأماميّة اليُسرى قبل عامين، في المنحدر نفسه. سقطت. وانزلقت نزولاً إلى الأسفل.

عندما نكون وحدنا، جدّتي وأنا، ننزل مع بعض إلى العين. نعمل جماعيّاً. جدّتي تغسل الأوعية بمسحوق التّنظيف. وأنا أملؤها بالماء. ثمّ ننقلها برويّة،

واحدة تلو الواحدة، إلى رأس الهَضبة. نُحمِّلها على ظهر الأتان وننقلب على أعقابنا، مقفلين.

في طريق العودة، نعاني الوعورة نفسها. أشواك. حجارة. في كل مكان. ننحدر ونصعد وندور حول الرُّبى. تتلقلق المياه في الغَلن والجِرار. تتلقلق بُطوننا وأرواحنا أيضاً. حدبات. حُفر كثيرة. "زرازيح"[3]. نُصادف بعض الوجوه الملعونة قادمة، بالأزيار وأباريق التّنك والقلال. قبّح الله تلك الوجوه. نتوغَّل في غابة العَرعار. نُفزع الأطيار، فتخرج أسراباً من أعشاشها على أغصان الشّجر. تقفز الأرانب البرّيّة هاربةً، وتتوارى في رمشة عين بين الأعشاب الكثيفة. في مرّة، أطلقت جدّتي على إحداها النّار. أصابتها. رفعتها من أذنيها. قبّلت وحلّلتها بموسها بو سعادة. ظفرنا بوليمة من لحم الأرنب الجالي. أعددنا كُسكسي. شبعت. أكلت أصابعي وراءه. أطلقت مرّة أخرى "النُّفّاح"[4] على خنزير وحشي ضخم. قطع وأنثاه علينا الطّريق. لم تحلِّله. أوثقته في العربة. جرّته إلى خيمة الصّيادين النّصارى. وباعته، بالكغ، وكان سميناً.

[3] منحدرات.

[4] نوع كُروي من الرّصاص.

بعد مسير مضنٍ، نعود مُتعبين منهكين إلى كوخنا مُحمّلين بالبول الصّالح للشّراب. كل أهل القرية، يشربونه على الحال القذرة الخام. عدانا نحن. فجدّتي كانت قد صنعت لنا محطّتنا الخاصّة لتصفية المياه.

أوّلاً كانت تُفرغ كل مُحتويات الأواعي في برميل نُحاسي متوسّط الحجم، مُصقول من الدّاخل بعناية، ومغلّف بمعدن رمادي برّاق من الألومنيوم. كلّما يفرغ ذاك الأخير، تُعقّمه بمساحيق التّنظيف وماء الجافال. ثانياً، تأخذ منه كمّيات صغيرة بإبريق اليَد. تُفرغها على مهل في هِشّة فخّاريّة، تُغطّي فَمَها بغربال شعر، عليه طبقة سميكة من الفحم الممتزج بالرّمل. ثالثاً، متى امتلأت الهِشّة الفخاريّة وخوى البرميل تُزيل جدّتي الغُربال وتلقي مُحتوياته العَكرة، برملها وفحمها وشراغيفها خارجاً. تتناول إبريقاً آخر نظيفاً. تُفرغها في جرّة أقلّ من سليفتها حجماً، وكذلك مُغطّاة بغربال ذي شبكة، عُيوُنها أوسع قليلاً، تجثم عليها طبقة من الرِّمال. وهكذا تدريجيّاً، إلى أن نتحصّل على قلالٍ ملآنة

ببول أقلّ صُفرةً من بول العين، بول أصفر باهت كعصير اللّيمون. ومُعالج بماء الجافال.

محطّة جدّتي تُنقّي المياه. تُعقّمها ما أمكن. ولكن لا تُخلِّصها من الكبريت اللّعين ولا من الرّائحة العفنة ولا من صُفرة البول تلك. إنّه بول مسموم. بول كبريت. بول عفاريت العين. بول الحمير. بول الأغنام. بول الأبقار. بول الضّفادع. بول الخنازير. بول الماعز. بول "صالح" للشّراب. نضطرّ أن نشربه مُجبرين. نشربه وهراوة فوق أعناقنا المكسورة. نشربه. فنحن لا نملك صنبوراً في بيوتنا. مُجرّد صنبور لعين. ماء عذب ونظيف. يطفئ عطشنا المُزمن. نطبخ به ألذّ وأشهى بَعدُ من مرق الكبريت. نستحمّ كما ينبغي. نغتسل بالقدر الذي نُريد. نزيل الخراء عن مؤخّراتنا. نتعارك بمُسدّس الماء. نُبذّر. نسبح في حمام كبير أو في مغطس. لا نبالي. نسرف. لا نتقشّف. يذهب الاقتصاد في الماء إلى الجحيم.

نشربه لنتسمّم، لنموت، ونتمدّدَ ذات يوم على حافة الجدول. من دون حراك. منتفخين. نتقرّح. يأكلنا الدّود. يحوم حول جيفنا الذّباب. تُمزّقنا الضّباعُ والعقبان. كجثث مواشي القرويّين. لأنّنا ملاعين. مشؤومون. ونحن ميّتون في كل الأحوال.

4

عُهْر الماعز

اسمها مَسْعودة. عنزتنا وجه الخير علينا. تُعطي وما سجّلت يوماً في الدّفتر. كنّا نشرب من حليبها الأبيض كالثلج. هي أيضاً بيضاء الشّعر. طويل هو شعرها. وخصلُه طويلة وكثيفة. ضرعها ورديّ مثل بتلات الورود. لا يجفّ أبداً حتّى في مواسم الجفاف والقحط. تُخرج حلماته المتدلّية حليباً من كل شيء، من أكل الحجارة وأوراق الصّحف وأكياس البلاستيك.

عنزتنا ذات عينين زرقاوين بخجل، زرقة أقلام لبديّة قديمة، زرقة سماء حائرة بين الشّتاء والرّبيع. مَسْعودة أيضاً خفيفة الرّوح. طريفة ومهضومة. على عكس كلّ الماعز المُشاغب، كانت رصينة وهادئة. لا تتحرّك كثيراً. لا تقفز على حواجز الزّريبة. وَدودة. تنام على التِّبن. تفترش التِّبن. كي لا تتّسخ بالبول والغائط. تقضي حاجتها في الرُّكن نفسه من الزّريبة بعيداً من الأنظار. تغطّي نجائسَها. تضع عليها الحشيش والقشّ. نظيفة. ما من براغيث في أذنيها. صفر قمل. كانت عنزة وقورة وذات رفعة وكفى.

كنت أحبُّ مَسْعودة حبّاً عميقاً، وأحترمها، لأنّ قلبها كبير وحنون كقلب جدّتي. كنت أقول إنّها من الملائكة وليست من الماعز. حتّى إنّني في بعض الأحيان أناديها ملاك في مكان مَسْعودة.

أجزُّ لها حزمة ثخنة من الأعشاب النّديّة خلف الكوخ. أعطيها، خلسةً، نصيباً من شعير الدّجاج. أقطع لها أعقاب خُبز يابس من نصيب كلبنا كَسْلان. كنت أجود عليها سِرّاً وجهْراً. شيء وحيد يخصّ مَسْعودة لم أفهم حكايته.

لماذا هي بيضاءُ وجديانُها سودٌ كالغربان؟

في أحد الأيّام، كانت جدّتي تَجهر زريبتها وتُطعم جديانها. قبالتي ظهر جدّتي المحدودب. اغتنمْتُ غفلتها. تَسلّلت على أطراف أصابعي. تقرفصت. واختبأت

وراء النّقّالة. اهتدت إليّ العنزة. لم تَشِ. كانت تعلم أنّه مقلب. انتظرت اللّحظة المُناسبة. تلك التي تفقد جدّتي فيها حذرها بالكامل. ثمّ قفزت فجأةً إلى الأعلى، وصرخت بصوت حادٍّ كالجنيّ.

تململت جدّتي مفجوعة. لم تكن تتوقع صُراخ أيّ ملعون. فقدت التّوازن. مالت. ثمّ سقطت. على مقربة من كدس البعرور. وجهها في التِّبن. مُحتضنة باقة النّبات الوحشي.

– يا ابنَ الكلب.

صاحت جدّتي مُتلعثمة، تَتفلُ التِّبن وتزيل عن وجهها وفمها العُشب.

– الله يلعن أبوك الكلب.. رُكبي! يا ابن الجنّ... ستقتلني بذبحة. عليكَ اللّعنة من بليد ومُشاغب.

انفجرْتُ. أضحك دون انقطاع. أتلوّى. وأحتسي نخب نجاح المقلب الهزلي، بينما كانت جدّتي ما تزال تهجوني وتُسقط على رأسي قِنْطاراً من دُعاء الشّر.

– اضحك الآن يا ابن الكلب. سترى.

أضافت أمّي وهي تستند على دعائم الزّريبة كي تنهض. غاضبة. ترشقني بكلّ شيء تقع عليه يداها. حصاة. بعرور. مكنسة.

شبعت مَسْعودة بالضّحك كذلك. تبوّلت من الضّحك. بعبعت. وأطرقت تنطُّ هنا وهناك هازئة. رمت خلفها الوقار والرّصانة في الكيس نفسه. كذا هي مَسْعودة. أحياناً تنسى كونها ملاكاً أبيض. وتعود عنزة مُدوّدة من جديد. عنزة شقيّة. مثلي أنا. ويُعجبني الأمر كثيراً. لأننا نشبه بعضنا.

في ما بعد نال كلٌّ منّا عقابه. أنا تُهَمي الشّقاوة والمزاح الثّقيل وقلّة الأدب. مَسْعودة، الطواطؤ وإثم الشّماتة. سُجنت هي في الزّريبة كامل الأسبوع الموالي. أمضته مع أكداس الخراء ومن دون قشّ جديد. مع نزول وجباتها المُفضّلة إلى النّصف. أمّا أنا فقد طلت لي جدّتي إستي ولساني بالفُلفل الأحمر.

بعد تلك الحادثة، أصبحت جدّتي أشدّ حذراً كلّما تقترب من زريبة العنزة. وقد كانت تجُرّني من أذني إلى جوارها عنوة. أو على الأقل، تحدّد لي مُربّعاً صغيراً

ألعب فيه، في حدود منطقة أين تستطيع أن تراني. اعتذرت في عديد المرّات عن تلك الأفعال الصِّبيانيّة. إنّها مُحرجة. لا تليق برجل.

في ما يخصّ العنزة مَسْعودة. لم أفهم نقطتين فقط: لماذا جديانها سودٌ وهي بيضاءُ في بياض الثّلج؟

ولماذا تُجنّ بين المواسم خاصّة في الرّبيع؟

تكبر الجديان سريعاً. تأكل كلّ شيء. بما في ذلك خشب الزّريبة والأسلاك المعدنية. شقيّة. مشاغبة. تعشق التّهريج واللّعب الخطِر. جدّتي لا تصبر عليها. متى كَبرت كفاية، تبيعها أوّل يوم خميس، في سوق الأغنام. لكن سُرعان ما تلد مَسْعودة، العنزةُ البيضاء، في أقرب الآجال، ملاعين سوداً آخرين، دون أيّة فترة استراحة ما بين الولادات. ابنة العاهرة. لا تأخذ عُطلة قطّ. إنّها لَوَلودَة.

تولد الجديان. تعمُّ الفوضى. تصيح. ويستيقظ ذاك السؤالُ النّائم. ذاك الاستفهامُ الوجوديّ الخطِر.

من أين تأتي تلك المصائب السّوداء؟ ولماذا هم سودٌ وهي بيضاء؟

أسأل جدّتي. ألحُّ. أسأل من جديد. تبتسم. أشدّ جبّتها الفضفاضة. أرُجّها. أجذب بقوّة. تنهرني. تلكزني على قحفي. أعيد السّؤال. تنهرني. ثمّ تبتسم. كانت ابتسامة مُريبة. أيقنت أنّها تخفي شيئاً ما وراء ابتسامة مُحتالة كعين الدّيك.

كانت الأحداث تتكرّر وتُعيد نفسَها في كلّ مرّة وتزيد فضولي. انتبهت أنّ بيع الجديان يهيّج العنزة. تتناسى أنّها ملاك. تنقلب إلى حالتها الطبيعيّة. تَتَدوّد وتبدأ في إثارة المتاعب والإضراب عن العَلَف.

سلوكها الهمجيّ يستفز جدّتي. مشاكل. تثير أعصابها. تقذفها. تدعو عليها بالجنون. تتفل. أنال نصيبي. تُنزلني عنوةً من على أغصان شجرة الزّيتون. تَسْلم الأعشاش. أوقِّع هُدنة مع طائر الزّرزور.

– اذهب إلى كوخ الخالة هنيّة. قل لها إن مَسْعودة في حاجة إلى الدّواء. عُد على الفور.

غضبان أتوجّه إلى الكوخ. عُنقي يمتدّ كعنق الزّرافة في اتجاه عشّ الحمام في قمّة الشّجرة. أنا لست ساعي بريد. ما شأني أنا في مرض الماعز

وأدويته؟ لتذهب مَسْعودة إلى الجحيم. شيطانة مثيرة مشاكل!

أجرُّ إستي ونعليّ إلى هناك إلى أن أصل. أخبِّط على باب الكوخ. إذا لم تردّ خالتي هنيّة، أبحث عنها في إسطبل بقرتها الجنحاء. أمرُّ على الزّريبة. اللّعنة. معزات خالتي، كلُّهنّ مُدوّدات. الفوضى. إن لم تكن هناك بين المجنونات فإنّها من دون شكّ خلف الكوخ تعدّ الخبز في "القوجة".

أجدها عادةً. أسلِّم عليها من بعيد. كفّاها مكسوّتان بالزيت وعجينة السّميد. أُبلّغها رسالة جدّتي. تبتسم. ابتسامة مُحتالة. أكثر احتيالاً من ابتسامة جدّتي. أقتنع أنّهما تخفيان أمراً مُريباً. أتبسّم ببرود. تأكلني الحيرة. تناولني رغيف خبزٍ ساخناً، ملفوفاً في منديل مُزركش قميء.

– قل لجدّتك إن الدّواء جاهز. سأنهي إعداد الخبز وآتي به في غضون نصف ساعة.

أجرُّ إستي ونعليّ في اتجاه كوخنا. غضبان. حملُ الرّسائل عملٌ مُملّ. لست أفهم. ماذا تقصدان؟ هما تتحدّثان بالألغاز. فكُّ الألغاز أيضاً عمل مُملّ جدّاً. في الطّريق رأيت سحليّة تختبئ بين الحجارة. التقطت زجاجة مياه غازيّة ملقاة على مقربة من جحر السّحليّة. أردت أن ألعب معها غُمّيضة أعنف من تلك التي ألعبها مع أترابي. أمسكت بعنق الزّجاجة. صوّبت في ذنب السِّحليّة. كان بارزاً بين الحجارة. استجمعت قوة ذراعي. ورميت القذيفة البلّوريّة. ارتطمت. دوّت بعنف. قرقعة. انفجرت شظايا وجزيئات. تطايرت في الجوّ، وطار معها ذيل السّحليّة عالياً. ثمّ سقط على التّراب. ينزف ويهتزّ ويتقافز من تلقاء نفسه في كلّ الاتجاهات. فزعت. تساءلت كيف يتحرّك لوحده وقد قتلت السّحليّة. يا ويلي. خلصت أنّه على الأرجح من الموتى الأحياء. تناولت مثلثاً زجاجيّاً من شظايا القنبلة المتناثرة على الأرض في كل مكان. جعلت منه سكّيناً أحمي بها نفسي الآن. أنتقم به من الزّرزور وأذبح به فراخ الحمام في ما بعد. أطلقت ساقيّ إلى الرّيح. أعدو من دون أن أنظر إلى الوراء.

وصلت إلى كوخنا ألهث. أتنفّس بعمق. استقبلتني جدّتي مُستنفرة لا تدري أيّة بلاء سيأتيها من أفعالي الشّقيّة. أفعال إبليس.

– ما لك؟ ماذا فعلت؟

– كن... ك.. كنت أركض.
– على مهلك! لمَ العجلة؟ ماذا قالت لك خالتك هنيّة؟
– قالت إنّها تعدّ الخبز الآن. الدّواء جاهز. وستلحق بعد نصف ساعة.
– عال! أحسنت.
كنت أهمُّ بتسلّق الشجرة، أروم أن أصفّي حسابي مع الزّرازير قبل أن تُشير عليّ جدّتي بأن أدخل إلى الكوخ حالاً. رضخت. ما أنا فاعل أمام كل تلك الأوامر الصّارمة كأوامر الدّرك!
بعد قليل سمعت صوت الخالة هنيّة وهي تنادي من بعيد وتحيّي كأنّها تولول.
– واه يا سالمة واااااااااه!! أين أنتِ؟ آآآآه... وهاي.
يكمن أن أميز جيداً صوتها الحادّ وأنا في قاع بئر.
في القرية خالتي هنيّة تندب أي ميِّت كان، بمقابل، وفي بعض الأحيان ببلاش. تتطوّع دون أن يسألها أحد. يكتريها كثيرون من أهل القرية في الأفراح كي تُزغرد، وفي المصائب كي تنوح وتندب. هي محترفة في ذلك. تحترف النّشاز. بوق مُضخِّم للصّوت. تعشق الصّراخ. تقلب الأجواء على رأس الحاضرين. تُطرش الآذان. وتقطف ثمار صوتها المزعج والقبيح.
هممت أن أخرج من الكوخ. وددت أن أنبّه جدّتي إلى حضورها عساها تكفُّ عن الصّياح. اعترضتني في الباب. قطعت عليّ الطّريق. حثّتني على الدّخول وعدم التكلُّف في مسائل الكبار. نعتتني بالفضوليِّ والمُتكلِّف، لأنّها كانت قد سمعتها، ولأنّها ليست صمّاء وليست بحاجة إلى تنبيهي. جادت عليّ بصحنٍ من التّمر، كتعويض عن كل تلك النّعوت السّمجة.
– بعد أن تكمل، اغسل صحنك. وإيّاك أن تغادر الكوخ قبل مجيئي.
ختمت جدّتي. ثمّ خرجت وأقفلت عليّ باب الكوخ وشُبّاكيه، الأمامي والخلفي، من الخارج.
أثار تصرُّف جدّتي حفيظتي. لم تكن تعاملني هكذا أبداً. كانت حنونة. الغريب أنّها تقسو عليّ وتتبسّم. تأكّدت أنّ الخالة هنيّة قد جلبت معها شيئاً يُحرَّم عليّ أن أراه. ربّما السرّ الكبير في ذاك الدّواء اللّعين.

أجهزت على التّمر في دقيقة. تركت النّوى في الصّحن. لم أغسل الصّحن. ألصقت عيني في فرجة من الفرجات بين ألواح الجدار. لم أرَ شيئاً. قرّرت أن أخرج مهما كان الثّمن. حاولت فتح الباب. استعملت مفتاح الخزانة. رأيت جدّتي تخفيه تحت أصيص النّعناع. لم أتمكن من القفل. المفتاح صغير. ثقب القفل كبير. عندما ألمّ بي اليأس، توجّهت نحو الشّبّاك الأمامي. لم أرَ شيئاً. حاولت فتحه. إلّا أنّ السِّلسلة من الخارج حالت دون ذلك. ذهبت جهودي سُدىً. تملّكني إحباط. سرْتُ فاقداً الأمل في اتجاه النّافذة الخلفيّة. دفعتها. انفتحت جُزئيّاً. كانت مشدودة بحبل لا هو ثخن ولا هو رقيق. كان بين بين. اسْتَبشرت. استعنت بكرسيّ خشبي. صعدت عليه بحذر. من جيبي، أخرجت مُزمهرّاً سكيني البلّورية. شرعت أذبح الحبل. تخيّلت أني أذبح الزّرزور الذي تبرّز على وجهي، وأنا متشبِّث بأحد الأغصان، ذاك اليوم. احتقنت. أردت أن أثأر لكبريائي الذي انّسَخ، وأنتقم. نشطت. أصبح الذّبح أكثر ضراوة. أشتم رائحة حريق. مفعول الاحتكاك. إلى أن انقطع الحبل. وتحرّر مِصْراعا النّافذة. تسلّلت من خلالها إلى خلف الكوخ. ألقيت نظرة مختبئاً وراء الجدار. رأيت جدّتي أمام الزّريبة. لم تكن الزّاوية جيّدة. وسوس إليّ حبُّ الفضول أن أصعد إلى السّطح. امتثلت. لم أحسب حساباً لعقوبات جدّتي وحرارة فلفلها. تسلّقت شجرة الكلتوس خلف الكوخ. سِرت على غُصنها المُقوّس. كدت أن أفقد توازني. استقمت. قفزت إلى السّطح دون أن أثير جلبة تلفت إليّ الأنظار وتكشف أمري. انبطحت. زحفت على بطني إلى الزّاوية الإستراتيجيّة.

يا للهول! يا ويلك يا مَسْعودة!

بمجرّد أن رأيت الدّواء الذي يتحدّثان عنه بالألغاز. عرفت من أين تأتي تلك النّوائب السّوداء.

إنّه تيس الخالة هنيّة الضّخم. أسود كليلة من اللّيالي السّود. منتصب كجبل. مارد من مردة الجحيم. قَرنا الشّيطان. لحيته معكوفة. تبثق إلى الأمام، وإلى الأسفل تكاد تكنس الأرض. تتدلّى خصيتاه، كبذنجانتين كَبيرتين ناضجتين. من بينهما يندفع خرطوم كبير طويل وأسود سواد الغربان. مزراب. مزراب ريّ، كنت قد رأيت مثله في بُستان العمدة. بعبعته صاخبة مُفعمة بالشّرور. يصيح

ويرفس الأرض بفراسمه في انتظار إخراج أنثاه من الزّريبة، التي لا تتسع لكليهما إذا أدخلوه. قد ملّ الانتظار.

منكوبة المسكينة، واجفة. اعتكفت في ركن من أركان الزّريبة وتجمّدت. بدا صياحها جزوعاً مُرتجفاً. يعكس خوفها الشّديد من ذلك الشيطان. بركت البائسة على الأرض. التصقت بالقش. وقطعت النّفس. لم أعد أسمع صوتها. لعلّها فقدت الوعي. ندمت على أفعالها وكل تلك الشّقاوة. لكن لم ينفعها النّدم المُتأخّر. قد وقعت الفأس في الرّأس. رفعت جدّتي قائمتيها الخلفيّتين. لم يكن لها إلّا أن نهضت. اقتادتها كالنقّالة إلى خارج الزّريبة. ما إن رآها المارد الأسود قادمة حتّى اخشوشن جذبه وتنمُّره ورفسه، محاولاً أن يفلت إلى أنثاه من قبضة الخالة هنيّة التي واصلت إحكامها على قرنيه وركل بطنه برُكبتها، قائلة:

– اهدأ يا لعين يا ابنَ اللّعين.

رأيت مَسْعودة تتبوّل على جدّتي من الخوف. أجزم أنّها تبرّزت كذلك، لأنّ سخط جدّتي عليها كان كبيراً، وهي توثقها في جذع الزّيتونة، موجِّهةً دفّتها إلى الملعون الذي ازداد هَيجانه وغدا يخرج لسانه البنفسجيّ المائل إلى السّواد بدوره، ويبصق ويرفس ويصفِّر ويصيح بصوت كأنّه إطلاق ريح.

أطلقته الخالة هنيّة فارتمى عليها. نطحها برأسه. وانتصب على قائمتين وركب على ظهرها بالقائمتين الأماميّتين. زرع ذاك المُخمّد في مؤخرتها. صاحت مَسْعودة صيحة واحدة ثمّ بكمت نهائيّاً. هل أغمي عليها؟ واصلت جدّتي تثبيتها على تلك الوضعيّة رافعة ذَنبها. لم تكن غاشية. عاود الملعون نطحها. وطفق يرجّها إلى الأمام وإلى الخلف. يُحدث الرجُّ صوتاً كخفق البيض في إناء. صوت يشبه إلى حدٍّ كبير البُصاق.

تواصل الرّجُّ قُرابة رُبع ساعة. تحمّلت وأمسكت على الألم. عندما يخفِّض التّيس نسق الرّجّ تنتشي الفاجرة. تصيح. تقهقه. تدبّ في جثّتها الحياة. لم أكن أتصوّر أنّها صلبة لتستميت أمام زلزال. ينتبه الشّيطان أنّها ما تزال تتنفّس. ينطحها من كلِّ الجهات. يقفز إليها كالكنغر. يضربها بقائمتيه الحُرّتين. يلهج. ويضاعف الرّجّ وإقحام مزرابه الذي تغلغل عميقاً في الدّاخل، وهو يتفل عليها. رأيت عنزتنا تتمزّق. كانت خالتي هنيّة تنهره وتلكمه بعُنف. يوشك على قتلها.

يثبت. يلتصق في أنثاه المنكوبة أكثر فأكثر. ويزيد سُرعة الرّجّ إلى أن انتبهت أنّ مَسْعودة قد زاغت عيناها الزرقاوان إلى الخارج مثل كُجّات. تدلّى لسانها. تأرجحت. وبركت على التُّراب.

انتفخ شيئي بين فخذيّ. تألّمت. لم أشعر كيف قفزت من الذّعر كلولب مضغوط. طرت في السّماء. وصحت بأعلى صوتي:

– لقد ماتت مَسْعودة! لقد قتل الشّيطان عنزتي المسكينة.

أبكي وأتفجّع.

انكشفت. اهتدت جدّتي إلى مكاني فوق السّطح. تركت كلّ شيء بين يديها واستدارت.

– يا ابنَ الكلب. ماذا تفعل عندك؟ سوف تصيبني بالجنون.

ثمّ زرعت عينيها في الأرض، تبحث هنا وهناك عن أي مقذوف يمكن أن تصيبني به. انحنت وتناولت حجراً.

– أين هو؟ أين ابن الكلب؟

كنت قد انبطحت فوق السّطح. جعلت يديّ على رأسي. وتحصّنت بالمدخنة.

انفجرت خالتي هنيّة تولول أو هي تضحك نائحة. لست أدري فأصواتها تتشابه. كلّها نشاز قميء. ووشت بي؟!

– واااااااه. ووووووووه!! آآآآهي! إنّه مُنبطح هناك.

وحدّدت إحداثيّات مكاني بكل دقّة كأنّها رادار.

– أين؟ أين؟ الكلب ابن الكلب.

– هناك وراء المدخنة.

وجّهت جدّتي مدافعها. وأخذت ترشقني بقذائف من الحجارة والطّوب مغيِّرة منحى الإطلاق في كل قذيفة. وعلى تلك الشّاكلة وصلني القصف من كل مكان. ترتطم الحجارة بالمعدن. كل مرّة يدوي لوح زنك. علقت. ارتبكت. لم أقدر أن أفعل أي شيء. جدّتي تقصف وتتقدّم. إلى أن تمترست عند جذع الكلتوسة في الخلف. فسلّمت نفسي ورفعت عالياً يديّ.

ليس لي مكان أطلب اللّجوء إليه. كانت تلك أكثر مرّة تطليني فيها جدّتي بالفلفل الحار. استهلكت تقريباً كلّ محتوى الحقّة. لم تترك أي مكان لم تُخلِّله

جيِّداً.
– اللّعنة على الماعز والتّيوس معاً. أنا ألتهب. أحترق.
أركض في كل الاتجاهات. أقفز. أجمِّع الهواء في عينيّ. لم أعد أرى سوى رذاذ الفلفل الأحمر. لا أرى شيئاً. عمى الفلفل. أركض. إلى أن اصطدمت في بطن مَسْعودة. بدأ ينتفخ. سوف ينتفخ كلّ يوم. لم تمت. ابنة الجحيم. لم تمت. العاهرة. تربّي أرواح الشّيطان. إبليسة أمُّ صغار ذاك الإبليس الذين خرجوا إلى الحياة، مصائبَ سوداء، بعد وقت قصير.

5

رحلة إلى المدرسة

كنت أنهض على عواء ذئب بعيد في سفح الجبل. لم يعد لنا ديك يؤذن في الفجر ونصحو على صياحه المبحوح. أكله الثّعلب.

الدّجاجات أرملات حزينات من دون فحل يدخُل ويخرج عليهنّ. كان ذلك منذ شهر. لم تبتع لنا جدّتي ديكاً آخر بعدُ. كانت زوجاته المتبقِّيات على قيد الحياة يكملن عدّة الأرامل. ويستعددن، بعد نجاتهنّ من الثعلب، لاستقبال العريس الجديد الذي سيُزَفُّ لهنّ من السّوق الأسبوعية القادمة.

أذكرُ جيِّداً ذاك اليوم الأسود الذي أقامت فيه جدّتي حداداً مفتوحاً، بعد أن وجدت في الصّباح دجاجاتها المُدلّلات صريعاتٍ في دمائهنّ الممتزجة بالتراب والشّعير، وقد دُفنّ تحت ردم من القشِّ المَرفوس والرّيش المتناثر والملوّث بالدّم. يومها، تحوّل قنّ الدّجاج إلى مقبرة. وما زاد تلك الفاجعة بؤساً، بقاء الدّيك في عداد المفقودين. كان الأغلى على قلب جدّتي. الذَّكر والقائد والحكيم. كان فوق كل داجن آخر. فوق كل طنجرة. فوق كل شيء، لجماله الفاتن وخبرته في تلقيح الدّجاج. إنّه طاووس جدّتي المُسنّ. شاخا معاً وترافقا كلّ تلك السّنين.

أكل قلبَها الحزن. لم تجد جُثّته في ساحة المَذبحَة. وجدت البقايا المُبتئسة خارج القنّ، متقفِّيةً نقطَ الدّم المُتعرِّجة على التّراب. رجله المبتورة ذات المخلب المكسور. ريشة أو ريشتان من ذنبه، تطايرتا، زرقاوين شاحبتين. وقطعة ممزّقة نازفة من عُرفه الأحمر النّرجسي. أشلاء متناثرة ومُغبرّة. بكت جدّتي ديكها العجوز الوقور، ورثت طويلاً جماله المرتحل من غير رجعة.

مذّاك، أعلنت جدّتي الحرب على الثعالب. كانت ترمي لهم كل جثث الدّواجن في الجرف الكَبير بعد أن تدسّ فيها السمّ وتنقعها في قتّال الفئران ومبيد الـDDT. فينتهون مسمّمين منتفخين كالجرذان.

منذ ذلك اليوم، لم نعد نملك ديكاً، إنّما أصبح عندنا ذئب. ننهض على عوائه. نستفتح يومنا بالفزع والاستنفار.

أنهض جزعاً، فأجد جدّتي قد نهضت قبل ذلك بكثير وصلّت وقرأت القرآن وأدعيةَ الاستفتاح، مُتَوفِّرة بجانبي تهدّئ من روعي وتطمئنني وتقول لي إنّ ليس هناك داعٍ للخوف.

"صباح الخير يا جدّتي".

"صباح السّكر"، تردّ وهي تداعب فروتي.

"لا تخف إنّه بعيد"، تقول لي كلّ صباح جزوع!

أحكُّ عينيّ وأتثاءب.

– الذِّئب؟

– ومن غيره؟ هيّا انهض وكفى كسلاً! عجِّل بالاغتسال وتجهّز للمدرسة.

أترك الفراش الدّافئ وأقصد الرّكن الذي نتّخذ منه مرحاضاً في الكوخ. أصرف وقتاً لا بأس به أتبوّل في الدّلو، وأتغوّط على نار القنديل ثم أغتسل من كلتا النجاستين البشريّتين. في هذه الأثناء، تجهِّز جدّتي فطور الصّباح ولمجة الغداء في المدرسة. كنت أخرج من المرحاض فأجد صينيّة الخير. ثم تتركني وتخرج، بعد أن تضع على كتفها البُندقيّة مَحشوّة بكَبسولَتَين، وتحمل القنديل لتحضر الأتان من الإسطبل الصغير بجانب الكوخ.

في هذه الأثناء، وبعد الفراغ من الأكل، كنت أرتدي ثيابي على عجل. ألبس مراويل صوفيّة، بالإضافة إلى القمصان الدّاخليّة الكثيرة والميدعة، وسِروالين وجوربين ثَخِنين يُطبقان على السِّروال الأوّل، وحذاء بلاستيكي يصعد إلى نصف القصبة استعداداً لقطع الوادي، وقلنسوة وقفازات، إلخ من الأشياء القُماشيّة، وفوقها جميعاً معطفي المشمّع المُضاد للماء، لأتدثّر من برد الشّتاء المُتوحّش في شعابنا وأتّقي هجمات المطر المفاجئ. بكل تلك الأسمال التي أضعها على جلدي، كنت أبدو مُضحكاً وسميناً. كما أنّ الحركة تصبح صعبة. بالكاد كنت أستطيع أن أضع حقيبة الظّهر الملقّمة بكتب ثقيلة وكرّاسات وجثث أحلام مجهضة أو موءودة.

كنت أسحلها على الأرض وأخرج لأنتظر جدّتي، ريثما تُعدّ الأتان وتثبّتُ عليها البَردعة.

كنّا نشُدّ الرّحال إلى المدرسة مُمتطين ظهر الأتان، على ضوء قنديل هرم، وصُبح كسول يأبى أن ينهض ويطلق شَمسَهُ التي أكلها الجبل بالأمس. كانت قافلتنا تسيرُ كل أوّل يوم، برفقة الخوف، في عُباب جوّ موحش كئيب ملفوف في حزن سَماءٍ حائرةٍ لا تدري أتضيء على الخراب أم تتستّر على بشاعتِه في العَتَمة. كان كلّ شيء يبدو أسودَ حزيناً يسبح في بحرٍ من الظلام والضباب يحفُّ الأفق. بدت الأتان تسبح أيضاً في السّواد. كانت تسرع في بعض الأحيان حتّى إنّها تعدو بعض الأمتار من الرعيل الضيّق الوعر، كأنّها خائفة وتهرب من شيء ما. يُحدِث عدوُها الخائف كثيراً من الارتجاج، فأستفيق، أنا، في الخلف من غفوتي على ظهرها، مُحتضناً خصر جدّتي النحيل وجاعلاً من ظهرها المقوّس ومقبض البندقيّة وسادةً.

أنتبهُ، فور النهوض من تلك القيلولة اللّذيذة على وقع هزّ الأتان الجافلة، وهدهَة عواء الذِّئاب، أن العُواء قد اقترب ومعه حشرجة وحمحمة وقباع ونباح وأصوات بشعة أخرى لا أعرف ما هي بالضبط، إنّما متأكّد أنّها لحيوانات وحشيّة تعشق الصّيد في عَتَمة اللّيل وتبحث عن فرائس.

أتفهّم وقتها مخاوف الأتان المسكينة وأجدُ مُسوِّغات لعدوها الجامح الهلِعِ في الوعورة والأشواك بعيداً من جادتنا المُعتادة بين الحقول. عندما تأبى الأتان الجَزوعة الانصياع لجذب الحبل، وتواصل جنوحها إلى شقِّ الخلاء في اتجاه المجهول، تترجّلُ جدّتي من على ظهرها وهي تهدّئ من جُنونها. كانت تُعيدها قسراً إلى السبيل، وهي تُمسك القنديل والحبل مع بعض، بيُسراها، وتحملُ بيُمناها البندقيّة، من المقبض الخشبي، وسبّابتُها مُتأهبةٌ على الزِّناد، في حال هاجَمَنا الذِّئب على حين غرّة.

كنّا مُهدّدين، وفي خطر في كلّ لحظة. كانت جدّتي، كلّما اقترب العُواء ووشوشة الأعشاب، تستنفر كجُنديّ. لا تتردّد في إطلاق خرطوشة في الهواء أو عشوائيّاً في اتجاه دغل الصّنوبر والعرعار. أرى الأشجار، الخنازير، الأشباح، تقطع علينا طريقنا النّائي كل فجر، في غابة الهلوسات تلك.

كانت الطّلقات الناريّة تُبعدُ علينا، بعد الرِّعاية الرّبّانيّة، شرَّ البلاء وأذى تلك الطّريق الطويلة. كان العُواء المُتقارب شيئاً فشيئاً، يفزع من دويِّ البارود والشّرار التي تنفثها ماسورات البُندقيّة، ويفرُّ، إلى التِّلال من أين يواصل مراقبتنا وتقفّي أثرنا، من بعيد، إلى أن نَصل إلى الوادي الكبير.

الوادي الكبير، لم يُسَمَّ هكذا عبثاً من عدم. كان الشّيطان الكبير! وقد كان القرويّون يعبدونه ويصلّون له ويُقدّمون له الهديَ والقَرابين من أولادهم وأحفادهم ومواشيهم وأرضهم وحبوبهم، خوفاً من أن يحلّ عليهم سخطُه ويهلكهم. كان وادينا هو وادي الموت. مقبرة كبيرة أكلت الكثير من الحيوات. هناك، دُفنت الكثير من جثث أهل القرية وحيواناتهم الأليفة، وامتزجت الدِّماء بمياهه الموحلة الرّاكدة على جرائمها وقتلاها. كل شتاء، كان الوادي يبتلعُ حياةً بائسة أخرى، ويُضيفها إلى قائمة الموتى والمفقودين التي كانت تتوسّع كلّ عام، مثلما يتوسّع هو، في مواسم الأمطار الطّوفانيّة، ويأكل تراب الأرض والصّخور العظيمة وكل شيء في طريق زَحفه. لقد ابتلع الكثيرين من البؤساء، من أهل قرية البُؤس. الكثيرين. نحن أيضاً، دفعنا ضريبة الحياة تحت جناح الشّيطان الكبير وفي كفالته المُكلفة. دفعنا كلبنا الهزيل أضحية له في نيسان الماضي. مزّقت علقة أحشاءه. كان ثمناً مُقابل عيشنا لنرى أُقحوان ربيع ذابل مُصفرّ لا لون ولا رائحة له، ربيع خائف أغبَر، جاءت به الأقدار بمُعجزة بعد أشهر يأس وبؤس، من شتاء عنيف. وادينا المُتوحِّش يأكل دائماً، ولا يشبع أبداً. يأكل حولاً كاملاً وفي جميع الفصول. لا يترك شيئاً. ماء مَسموم، مُلوّث بالدّم والجيف المُتقرِّحة والأرواح المغدورة التي ترعرعت على بقاياها العكرة يرقاته. إنّ كل من يشرب من ذاك الماء المسموم لا تشرق عليه شمس حتى يموت.

كنّا نهرب من فم الذِّئب، فنجد أنفسنا في فم وادٍ له سجل إجرامي. هي كذلك حياتنا. دائماً نُدفع، عن غير إرادة، إلى خيارَين أحلاهُما مُرّ. لست أدري ما هو السّبب. ماذا فعلنا للحياة كي تردّ الفعل هكذا كأنّ بيننا ثأراً ودماً؟ نحن في هروب مستمرّ، نعيش في الخَطر. وقد تعوّدنا طعمَ المرارة والاختيارات

القاسية. كنّا نختار أن نمضي قُدماً ونواصل السّفر كالطّيور المُهاجرة. رحّالة في هذه الشّعاب المتطرِّفة. هذا قدرُنا. لا نستقرّ.

كانت جدّتي تقطع بنا الوادي وتعبر الموت غيرَ عابئة به. تحملني أنا على ظهرها المُعوجّ فيزدادُ اعوجاجاً إلى أن يدنو ذقنُها من الماء المُلوّث العابق برائحة الموت والجيفَة. وتجرّ الأتان خلفها من الحبل في اتجاه المعبر الضيّق، وهي ناشزة. كان معبراً ضعيفاً. كنّا، كل يوم، نقطع الجحيم، متمايلين متأرجحين، على سراط مُستقيم مصنوع من حجارة وبعض الأغصان المكسورة. لم تكن جدّتي تريدني أن أسير في الوادي، فتتبلّل ثيابي ويدخل الماء إلى حذائي، وأمضي اليوم كلّه بجوارب مُبلّلة وأصاب بالحمّى. حذائي بلاستيكي، يصل إلى مُنتصف القصبة. لكن عندما نكون في قلب الوادي ونغطس في الأوحال، كان الماء يدخل عنوةً. كان الوحل سميكاً زئبقيّاً ويتحرّك بشكل حلزوني كأنّه دوّامة في مُستنقع، تريد أن تبتلعنا مهما كان الثّمن.

كانت جدّتي تقطع بي، وأنا على ظهرها، كل تلك الدوّامات. حينما نصل إلى الحافّة، كانت تستدير وتقشع ظهرها إلى الوراء وتميل بكتفها اليمنى إلى شجرة الدّفلى، كي أستطيع أن أتشبّث بغُصن من الأغصان، وأنطّ إلى اليابسة. في إحدى المرّات، انزلقت في الوحل وسقطت في الماء كدلو البئر.

كنت أطمئن جدّتي متى تطأ قدماي المُرتجفتان التُّراب النّديّ من جديد. وأقول لها إنّي بخير. لكنّ الحنونة، تواصل، في إلحاح، أسئلة الأمومة الحريصة التي لا تنتهي وهي تقوم بنصف لفّة في الماء كي تواجهني من جديد وتنظر في عيني: "هل تأذّيت؟ هل اتّسخ ثوبك بالطّين؟ كيف حال قدميك؟ هل طالهما البَلل؟ أنت بردان؟".

أقاطِع وابل الأسئلة التي كانت تفتحه في وجهي، كرصاص سلاح رشّاش، وأنفي كل شيء.

"طيِّب". كانت ترميها هكذا كيفما اتّفق. تزلق يديها في البوط كي تقتنع. أستغرب ارتيابها كثيراً. كيف يُمكن أن أتبلّل وقد قطعْتُ مياه الوادي الضّحلة على ظهرها، في الذّهاب والإياب؟

كانت تخاف عليّ خوفاً شديداً من الحمّى. لكن ماذا عن جدّتي؟

جدّتي التي تنزل إلى الماء البارد مثقلَةً بكتلة لحم ثقيلة مدثّرة في جُزز صوف خرفان وأسمال كثيرة، وتجذب أتاناً ناشزاً تشدّها إلى الخلف والأسفل كأنّها مرساة عالقة في القاع. جدّتي، التي تغطس بكل تلك الأحمال اللّعينة إلى منتصف عظمتي الفخذين وفي بعض الأحيان إلى حوضها الهزيل. ماذا عنها؟ ألا تخاف على نفسها من الحمّى؟

كنت أطرح عليها هذا السّؤال تقريباً كل يوم، أحياناً على ظهرها، وأحياناً أخرى قبل الرُّكوب.

تُجيبني قائلةً وهي تتكئ على مرحها القديم:

– الحمّى لا تطمع في لحم العجائز القاسي كالمطّاط.

كانت ترمي لي بالحبل، فألتقفه وأشرع في جذب مقود الأتان جذباً رجوليّاً يجعل جدّتي تفتخر بي، أنا رجُلها الصّغير، وتثني عليّ. تلتفّ خلف مؤخّرة الأتان، تدفعها إلى المَعبر. بعد ذلك تخرج جدّتي من المُستنقع، مُستعينة على أمرها بأغصان الأشجار، مبتلّة الثّوب، تقطر طيناً أسود وطحالب عكرة، وتسعل. كنت أهرع صوبها، بشوق يمتزج بالشّفقة على شقائها. لكنّها كانت تصُدّني، وتَحول يدها المُرتعشة بيني وبين حضنها المبتلّ، مخافة أن أتلطّخ بقذارات المُستنقع التي كانت تطلي نصفَها السّفلي كالإوزّة.

تُعيد جدّتي البندقيّة على كتفها. أمتطي ظهر الأتان. ثمّ تتناول الحبل ونشدّ الرِّحال من جديد في صمت وتعبٍ، كقافلة ضائعة، بين كُثبان الصّحراء.

حينما تشرق علينا الشّمسُ الشّاحبة، من خلف ستارة الضّباب نكون في قلب غابة الصنوبر. تتبقّى لنا مسافة لا بأس بها، لنقطعها كي نصل إلى مدرستنا القصيّة.

ثمّ نمضي، نطوي الوهادَ ونمزّق الحقول، تأكلنا المُنحدرات الحادّة تارةً، ويضنينا صعودُ التّلال طوراً، وتقطع الهضاب الشّعثاء طريقنا طوراً آخر. ونحن مثل مُشاة غرباء تائهين، نال منهم التّعب.

مع تفتّح نهارنا، في يأس وعُسر، كبتلات زهرة ذابلة، تزدادُ الشّمسُ المُنطَفئة شحوباً، كأنّها قرص جُبن قديم، منسيّ على أحد أدراج خزانة الطّعام. لم يجفّ ثوب جدّتي بعد، وقد أصبحنا على مشارف مدرسة "الدّخان"، التي

تلوح من بعيد، رماديّة داكنة، كعلبة كارتونيّة تطير في الضّباب، وتتباعد القهقرى كلّما اقتربنا مثل السّراب. ما يزال ثوب جدّتي يتبوّل طيناً، ويسري البرد إلى عظامها المُرتجفة، فتصير تعرج، تماماً كما تعرج أتانُنا بسبب شوكة لعينة تكسّرت في حافرها المُتآكل. كانت تعرج على تلك القدمين الفخّاريّتين المشقّقتين اللتين تيبّس عليهما الطين والشّوك والدّم، فألبستها جزمةً قبيحة.

6

مدرسة القرية

نصل، جدّتي وأنا، إلى المدرسة النّائية تعبانين منهكَين. جرت العادة أن تستقبلنا بالنّباح زمرةٌ من كلاب الرُّعاة وأخرى سائبة، تجتاح بطحاء المدرسة والخلاء المحيط بها. كانت جدّتي تنهرها عنّا بالعصا والبندقيّة، وتؤمّن لي طريقاً سالكة إلى الدّاخل، بين الحشائش الطفيليّة والأشواك والماعز والنعاج والحمير والبغال وغيرها من زوّار المدرسة الثّقال، والوافدين بُغية الرعي على النبات البرّي الذي سرق ساحتنا منّا.

كانت مَدرستنا مُستباحة من قبل الجميع. إنّما هي مرعى لمواشي الرُّعاة الرُّحّل ودوابّهم. كانت خيامهم القميئة تطوِّق مدرستنا من كل الجهات. يطيلون المقام في تلك الرُّبوع، من سوء الحظ، لأنّها وفيرة الأعشاب وقريبة من المدرسة، التي كانوا يتخذونها في اللّيل مأوى وبيت خلاء كذلك. خراء وبَول في كلّ مكان.

أودِّع جدّتي وأرسل لها، من بعيد، قبلاتٍ طائرة. فتلتقفها وتلوّح بكفّها التي تتقاطع، في الهواء، مع البندقيّة، وهي لا تزال مُنتصبة، كفرعون، نصفه السّفلي من فخّار أسود، يلتصق بطين الأرض كأنّه تفجّر منها الآن بتعويذة سحريّة، وأطرافه العلويّة أسلحة، أفعى وبُندقيّة، وصدره درعٌ من رصاص تدلّى عليه خُمسَةٌ ورَيحانةٌ لامعتان، ورأسه حديدي مزخرف بأخراس وحلقات ذهبيّة، وعيناه من نار.

تظلُّ جدّتي هكذا منتصبة، إلى أن تطمئنّ أني دخلت القسم. كنت أهرول ببطء تحت ثقل الحقيبة فوق ظهري الرّاكع لها. تستوقفني كلّ يوم "صنبة"[5] العلم الحزين، في قلب الساحة الغريقة في الأوحال وبرك الماء والبراز. لم نكن نجد مكاناً لأداء تحيّة العلم، بين الماعز الصّفيق الذي سطا على منصّة العلم، وأجهز على إكليلها وحجارتها.

[5] منصّة.

لذلك تنازلنا عن حقّنا منذ زمن بعيدٍ. بعد كل شيء لم نعد ننتمي إلى هذا البلد الذي تناسانا خلف السّور كالموبوئين، خلف جدار عازل من الجبال. نحن لا نعرف تونس، وهي بالتأكيد لا تعرفنا ولا تسمع بنا. نحن منسيّون. كل الصّبيان في القرية، بمن فيهم أنا، يحلمون بـ"السّفر" إلى العاصمة، إلى تونس. كبرنا على ذلك الحلم الكبير بلقاء تونس في يوم من الأيّام. تونس، الجنّة الخضراء، كما يقول سيدي النّاصر، وهو المُعلِّم الوحيد في مدرستنا. سيدي النّاصر، معلِّمنا، كان يصف تونس فيقول: "أنا يا تونس الجميلة في لُجِّ الهوى"، عن أبي القاسم الشّابي. وعندما سألنا عن هذا الشّابي، أجابنا أنّه شاعر عظيم من شعراء تونس. خالدٌ. كتب الكثير من القصائد. وكتب النّشيد الرّسمي للبلاد، ذلك النّشيد الذي كنّا نغنّيه، في ما مضى، صارخين بأعلى أصواتنا وأفئدتنا، قبل أن نبحّ ونخرس ويتكسّر بداخلنا الحلمُ ويسلبنا إيّاه الماعز.

لم نكن نعرف معنى الخُلود. رفع أحد التلاميذ إصبعه وسأل المعلم. فردّ سيدي النّاصر، بأنه يعني أن يعيش الإنسان إلى الأبد ولا يموت كسائر الخلق الفانين. التبس علينا الأمر وتضاربت الأفكار في أدمغتنا البليدة ضيّقة التفكير والأفق والأحلام. كيف يقول سيدي النّاصر إنّ أبا القاسم، شاعر تونس، خالدٌ وهو بشر، والبشر يموتون؟ كما أتذكّر أن معلمي قال لنا مرّة إنّه لم يمت كما يدّعون، كذباً، أنّه توفي في سنٍّ مُبكّرة بسبب داء أصاب قلبه، بل إنّه خالدٌ لا يموت. لم نفهم شيئاً، لكنّا أدرجنا أبا القاسم، شخصيّة بطلة في حلمنا بتونس. أصبحنا نتمنّى أن نلتقي به عندما نزور تونس، في الحلم، ونسأله عن سرّه العظيم، عن إكسير الخُلود. نحن نعرف بوجوده وبقصائده، وقد رأينا وجهه مرّةً على ورقة نقديّة من فئة 30 ديناراً، مرّرها علينا، تباعاً، سيدي النّاصر كي نراه ونحفظ تقاسيم وجهه، فنتعرف عليه حينما نراه في تونس. لا يُطبَع على أوراق العملة سوى العُظماء والخالدين، والشّابي خالدٌ وعظيم.

شيئاً فشيئاً قتلَ البؤس فينا حلمنا وسرق الماعزُ جثّته. تبخّرت أمانينا في الهواء الرّطب، وطارت بعيداً إلى الغمام، سُحيباتٍ سُحيباتٍ، تكثّفت في بطن السّماء حول جبهة الجبل الباردة، ثمّ أمطرت علينا رفاتاً ورماداً وهباءاتِ أحلام. أُجهض الحلم، أُجهض، وبات سراباً نراه، وقد لا نراه، بين ألوان قوس

قُزح في عُرْس الذّئب. أنستنا الظروف القاسية معنى الحب. كرّهتنا المأساة الحب وسيرة الحب. وهجرنا الحلم، وطَلّقنا الأماني وأصبحنا ننام على المعاناة ونحلم بالمُعاناة ونصحو على المُعاناة.

نسينا وطننا الذي نسانا أو تناسانا هناك، في الأدغال وراء الغابة، في المطر والثّلج والبرد والفقر والخطر والمرض. وطننا الذي أنجبنا من رحمه ثم مضى، هكذا بكل بساطة، تاركاً إيّانا يتامى خلفه. مضى مُتجاهلاً كلّ شيء، غيرَ مبالٍ بنا. رحل كما ترحل السُّلَحفاة بعد أن تفقس بيوضها. لذلك مات الحلم واحترقت الآمال ونسينا، نحن، نشيد الوطن.

حُماةَ الحمى يا حُماة الحمى
هلمّوا هلمّوا لمجد الزّمن
لقد صرخت في عروقنا الدِّما
نموتُ نموتُ ويحيا الوطن
(نسيت ترتيب الأبيات)
سواعدُ يهتزّ فوقَها العلم
نباهي به ويباهي بنا
(لا أذكر)
وفيها كَفا للعُلا والهمم
وفيها ضمانٌ لنيل المُنى
(تسرّب الشّك وشروخ في الإيمان)

أصبح يغنيها الماعز الذي يغزو مدرستنا كلّ صباح، ويأكل منصّة العلم.

ننسحب ناظرين إلى الأسفل. أكلنا الماعز، بالكامل، واغتصب حلمنا وسرق منّا حبّنا للوطن. لم يعد لنا سواعد متينة تقدر أن ترفع العلم. ضمرت سواعدنا وأجسامنا، وهزلت وذابت عظامُنا وانصهرت أرواحنا، وأمسينا عاجزين. لقد عطّبتنا المُعاناة، لقد خصتنا وقسمت ظهورنا وأحنت رؤوسنا وركّعت هممنا وأنوفنا.

تعبنا ولم يعد لنا سواعد يهتزُّ فوقها العلم، ويرفرف عالياً في الهواء الطّلق. عَلَمُنا أصبح يهتزّ على عمود قبيح مُعوجّ، مزروع في كومة من حجارة بائسة وبعض قطع الآجرّ المكسور. تهدّمت منصّة العلم ونُهش إكليلها وتقصّف، واقتلعت أزهارها من الجذور. لم يعد لنا علم. تمزّق. مزّقته الرّياح. باد. تبقّت منه خرقة قماش حمراء باهتة كَرِداء مستعمل، ملتصقة بحبل رقيق متآكل، ومتشبِّثة بالحياة. نزف علمنا كل دمائه القانية، دماء الشّهداء، مع غزارة المطر المنهمر. فتر الماجنتا إلى زهري باهت فاتر يوشك أن يبيضّ، ثمّ ابيضّ تماماً، ولم تتبقَّ قطرة واحدة من دماء الرّاية المُراقة. تنكّس العلم المُمزّق، إلى أجل غير مُسمّى، حزناً وحسرةً على أحلام تلاشت كما يتلاشى وميض البرق.

كنت أستفيق، وأنا مُفتّح العَينين، من تلك الغيبوبة العموديّة، واقفاً بصعوبة على رِجلين مُرتجفتين لسَعهما البَرد. جدّتي تُصفِّر وتشيرُ إليّ بأن أتقدّم إلى المدرج الصّغير المفضي إلى القسم. كان الصّفير يبدو خفيضاً وبالكاد يصلني، كأنّ جدّتي بعيدة، تطلُّ من قلب خُصل الضّباب، في حين كانت على مقربة، أمام بوّابة المدرسة. كان ذاك الصّوت الخفيض يسحبني من غيمتي وتيهي بين ظلال تلك الذكريات والأحلام الكاذبة، فأستفيق. وأنظِّف السّراب عن عينيّ، كما تنظِّف المسّاحتان قطراتِ المطر على بلّور السيّارة. أكمل طريقي في اتجاه القسم، بين الأوحال وبرك الماء والضّفادع، متجاوزاً سيّارة سيدي النّاصر (البيجو القديمة) التي كانت تربض قريباً جدّاً من باب القسم. أمشي مستقيم الظّهر نسبيّاً، فقد خفّ ثقل الحقيبة اللّعينة بعد أن تجشّأتْ أحلاماً متبخِّرة. تعوّدْتُ أن ألقي تحيّة الصّباح على سيّارة مُعلّمي لأنّها طيّبة القلب وتُضحّي وتحبّ فعل الخير، كسيدي النّاصر مالكها. منذ سنوات كانت سيّارةً سريعة، شابّة ومُتألِّقة الجمال. فوانيسها الأماميّة ضيّقة ومشدودة قليلاً إلى الخلف، وهي بيضاء، في صفاء وجه عروس يابانيّة. لم تكن فوانيس، إنّما كانت عيوناً. لقد ضبطتها كثيراً من المرّات ترمش أو تزوّق أشفارها بالكُحل أو تبكي في أحيانٍ أخرى. بين تلك العُيون اليابانيّة كان هناك أسدٌ من معدن مصقول. أسد يقف على اثنتين ويُشهر براثنه القويّة. سمعته، هو كذلك يزأر في أكثر من مناسبة، صدّقوني. أيقنت عندها أن تلك السيّارة إمّا حيّة وإمّا مسحورة. لكن

بمرور الزّمن، وبمفعول وعورة الطّريق وتشعُبها ورعونة بيئتنا المتوحّشة، اهترأت وابتأست حالها. راح جمالها وشاخت من البؤس. أصبحت كومة خردة صدئة، مقشّرة الطِّلاء، تئنّ وتنام في العراء رغم قصف البَرَد الذي دكّ سقفها وكسَرَ زُجاجها الأمامي. رغم الأمطار الملوّثة بالتُّراب والرّماد والحُزن، الَتي طلتها بلون رمادي كئيب يميل إلى السّواد ولفّتها في لِحاف قبيح قاتم. رغم قنابل من براز كالفطائر تلقيها عليها الطُّيور من السّماء. وتحوّلت العروس إلى عجوز شاحبة، انطفأت من وجهها الحياة، وغزا مفرقَها الشّيبُ الأشعث وأزهرت على جلدها زنابق الموت.

كنت أسمي سيّارة سيدي النّاصر أمّ الخير، لأنّها كانت أمّنا جميعاً وطيّوبة كجدّتي. كانت ترعانا وتحرسنا من البرد. تحت غطاء المحرّك المرفوع بدعامة معدنيّة مائلة، من حلمتي البطّاريّة، وبوساطة كلّابتين، ينطلقُ سلكان طويلان إلى داخل القسم، أحدهما أسود والآخر أحمر، ينتهيان إلى مجفف شعر. اشتراه لنا مُعلِّمنا كي يجفف فرواتنا المُبتلّة، عندما ندخل عليه كل صباح نقطر بماء المطر، كأنّنا فراخ دجاج. سيدي النّاصر أيضاً كان يخاف علينا من الحُمّى. كان أبانا وكانت هي، أمُّ الخير، أمَّنا الحنون. في مدرستنا، في قسمنا، لم يكن هناك كهرباء. كانت سيّارة مُعلمنا، ببطّاريتها الكبيرة الصّفراء تؤمِّن لنا النّور والدفء وتجفف فرواتنا وترعانا من المرض والحمّى. أمُّ الخير ذاتُ القلب الكبير، كانت تُعطينا من كهربائها وإن كان ذلك على روحها. كانت تستنزف طاقتها وتمُدّنا بها، مجّاناً، كي نعيش ونستمرّ في العَيش.

كانت تبثُّ فينا الحياة وتولِّد في أجسادنا شبه الميّتة طاقة الحياة. أمُّنا السيّارة مُستعدّة أن تموت من أجلنا. كثير من الأحيان يستهلك مُجفف الشّعر، في رؤوسنا، كل الشحنة. وتنفد البطّاريّة المُنهكة. تتعطّب السيّارة، أمّ الخير، التي استنزفها فعل الخير في تلاميذ معذبين في الأرض. ويُصبح مُحرِّكها غير قابل للدوران، وتغدو جُثّة هامدة انطفأ فيها كلّ شيء. كنّا نحزن كثيراً عند رؤيتها في ذلك المشهد الكئيب. لم يكن سيدي النّاصر يحزن عليها مثلما نحزن عليها نحن، بل كان يغضب. لم نكن نفهم لماذا لا يحزن على موتها كما نفعل نحن. لقد كان يغضب كثيراً عندما تفعلها البطّاريّة وتنفد في منتصف رتل

التلاميذ المبتلين. كلّما كانت الرؤوس المبتلّة المتبقاة في الطابور كثيرة، زاد منسوب غضب مُعلّمنا على البطّارية. كان لا يتردّد في ركلها بجزمته الجلديّة الشّتويّة، أو رجِّها بعنف في الفضاء بين يديه، في محاولة لإعادتها إلى الحياة من جديد، لكنها تأبى.

عندما تفشل كلّ محاولات سيدي في إسعاف البطّارية المريضة، يتأكد أنّ المسكينة لا تتكاسل إنّما قد فارقت بعد أن حمّلناها ما لا تطيق وامتصصناها على الآخر. عندها يلجأ مُعلمنا إلى المدفأة التي تشتغل على النّفط، وسط القاعة، كمصدر بديل يؤمن لنا الدفء. كنّا نتحلّق حولها بعد أن خلعنا معاطفنا المُبلّلة وعلّقناها على مناشب من خشب، أنشأها لنا خصيصَى على كل جدار من جدران القاعة. يناولنا سيدي الناصر، إثر الفراغ من تعليق المعاطف، مناشفَ نظيفة وزوج جوارب جافّاً لكلّ منّا، اقتناها، من أجلنا، بكميّة وفيرة من سوق الملابس المُستعملة في البلدة. ثمّ نشرع في تجفيف أنفسنا قبل الدّرس.

كنا نحبّ معلّمنا حبّاً جمّاً. على عكس معلّمنا القديم، مُنصِف، الذي لم يكن منصفاً في حقنا وعاملنا بقسوة. لذلك كنّا نكرهه في دواخلنا بيننا وبين أنفسنا، لأننا كنّا نخاف منه ومن عصاه الغليظة. كان يضربنا بقسوة بعصا زيتون أين اتفق له أن يضرب: على أيدينا راحةً وقَفا، على رؤوسنا، على جنوبنا، على رقابنا، على مؤخراتنا، على أرجلنا، إلى أن تزرق لحومنا. وقد كانت الضربات مفعمة بغلّ وكره شديدين. لم يكن يتركنا نبكي بعد الضرب. كنّا نتألّم في صمت خوفاً من أن يتضاعف العقاب ونأكل المزيد. كانت عبراتنا غزيرة لكن خرساء. وقد كان وجعنا يصل إلى الحناجر، ونختنق في الحازوقة وشهقات دموع مكتومة الأنفاس. كان يضربنا ويمنعنا من البكاء. كنّا نبكي خلسةً من دون أن نُصدر صوتاً.

”يا حيوانات“. هكذا كان يوبِّخنا معلِّمنا المُنصف. كان دائماً ينعتنا باسم حيوان أليف من الحيوانات. يشتمنا بالحيوانات، تحت حجّة أنّنا متقاعسون ولا نفهم وأغبياء وأدمغتنا ثقيلة الفهم. ”يا بغال. أنتم حمير. يا هؤلاء البُّيوس. دواب. بهائم. بقر. أبقار...“. هو كذلك مُعلمنا القديم، مغرم بالحيوانات. كما كان يعشق

أيضاً، بالإضافة إلى الحيوانات، الأمراض. وقد كان يدعو علينا بشتّى الأمراض التي تفشّت بين البشر والحيوانات على حدٍّ سواء.

كنّا نبادله الكره ومشاعر أخرى بذيئة. وقد كنّا نردّ الفعل سرّاً على هجماته، بطريقتنا الخاصّة: نبصق في قهوته الصباحيّة. ندسّ خلسةً في درج من أدراج مكتبه السِّحر وتمائم، كي نجعله يختفي من الوجود. نتبوّل على كرسيه. نتبوّل، بالتداول، على إحدى عجلات شاحنته الخفيفة. أو نذهب إلى أبعد من ذلك في ثأرنا، فنخفي تحت الدّولاب مسامير وبراشم. نتشفّى، عندما نسمعه يشتم ويسبّ الجلالة ونراه، مُعطّباً في منتصف الطّريق، يعاني ليغيّر الدّولاب المنفجر، وقد تلطّخت يداه بالشّحم.

أتذكّر أنّه في أحد الأيّام من أيّامنا الرّتيبة، وبمناسبة يقال لها شهر المدرسة، جاء وفد إلى مدرستنا المنسيّة خلف الجبل. وفدٌ في بذلات فاخرة وربطات عُنق من مختلف الألوان. سيّارات سوداء ذات دفع رباعي. علمنا بعد ذاك، عندما دخلوا إلى قسمنا البائس، أنه السّيد الوالي والسّيد المُعتمد وحضرة المندوب الجهوي وشخصيات مرموقة أخرى، قد جاؤوا بتكليف من معالي وزير التّربية، في زيارة تفقّد للمدارس الرّيفيّة، تندرج ضمن برنامج تنموي وطني، ينهض بالمدرسة والتلاميذ الرّيفيين وبالجهة ككل. رأينا ترحاب مُعلمنا المُنصف المبالغ فيه. إطراءاته ومديحه. نفاقه، وهو يفرك راحتيه ويطقطق أصابعه في انكسار وذلّ كالخادم، ويأمرنا كي نقف لهم احتراماً وإجلالاً.

”الأرياف من أولويّات البلاد بعد ثورة الياسمين من أجل الحرّيّة والكرامة. إنّ التعليم هو حجر الأساس لمستقبل مضيء“.

هكذا قالوا في خطاب مطوّل. أغدقوا في الوعود.

أمّا نحن فقد كنّا مذهولين وأفواهنا مفتوحة. لم نفهم شيئاً من كلامهم الصّعب. هذا العهد سيكون عهد الأمان والعدل. استبشرنا ببساطةِ أطفال ريفيين تعبوا كثيراً من الحرمان. عاودنا الحُلم بتونس. ذاك الحلم الذي ظنّا أنّه مات، أنّه تبخّر، أنّه انتسى.

رحنا نشتكي حالنا البائسة ونفرغ قلوبنا المنتفخة بالأوجاع والمآسي. ارتبكنا في بادئ الأمر. استحينا. انعقدت ألسنُنا وتلعثمنا. ثمّ تكلّمنا وأخرجنا ما في

صُدورنا من آلام وأحزان مدفونة هناك. تكلّمنا بحرقة كبيرة. بكينا. بآهات عجائز وليس أطفال. بحسرة وحزن. أفرغنا جعابنا وقلنا كلّ شيء.

قلنا، لحضرتهم، إنّ المدرسة بعيدة، ونمشي مسافاتٍ طويلة، في الخلاء والغابات، بين الذّئاب والخنازير البرّيّة، تحت المطر والبَرَد والثلج، كي نلتحق بالصّف.

قلنا، لسيادتهم، إننا ننام في القسم من شدّة التّعب، وأقدامنا قد دميت من الحصى والشّوك.

قلنا، لمعاليهم، إنّنا ننقطع عن الدّراسة لأسابيع عندما يفيض الوادي الكبير، ونلازم البيت أيّاماً وأيّاماً. أخبرناهم أنّ زميلتنا صابرة وأخاها الصّغير كريم، قد غرقا في الوادي عندما قطعاه في طريق العودة إلى البيت.

قلنا، لجنابهم، إنّ مدرستنا بلا ماء وبلا كهرباء. ندرس حصّة صباحيّة فقط، لأنّ الظلام يهبط باكراً. لا نملك مدفأة، والبرد في شعابنا قارس. نقضي الشّتاء محمومين مزكومين ونعاني من رشح الأنف دائماً. نشرب من صهريج صغير، وسخ، يأكله الصّدأ. قلنا إن الماء ملوّث بالكبريت والأتربة والشّراغيف. ماء غير صالح للشّراب، مسموم، لكنّنا نضطرُّ إلى شربه إذا نال منّا العطش ولم نعد نتحمّل. ومن وراء ذاك الماء الملوّث، مرض عدّة تلاميذ بداء الكبد "البوصفِّير".

أعلمنا، جلالتهم، أنّ مدرستنا ليس فيها بيت راحة. أنّنا نضطرُّ ونمسك على اضطرارنا يوماً كاملاً، فنقضي، في بعض الحالات الحرجة، حاجتنا على أنفسنا أو في الخلاء. قلنا، لمعاليهم، إنّ قسمنا برّاد. سقفه مشقّق وآيل للسّقوط. يقطر فوق رؤوسنا في الشّتاء، ونضطرُّ إلى وضع جرادل بلاستيكيّة تحت سيل قطرات السّقف المَطير. قلنا إن الحيطان تبكي من الجروح. جرباء. تقشّر طلاؤها، واخضرّت كالمرجة من النّدى. ثمّ اسودّت، ومعها صُدورنا المريضة بالرّبو، ووجوهنا، وأرواحنا الدّخانيّة، وخريطة البلاد التونسيّة التي كانت في الماضي خضراء، سهولاً هضاباً وتلالاً، منتصبة في سموٍّ قرب السّبورة، وندرس عليها مادّة الجغرافيا. اسودّت الخريطة. تقوّست. تآكلت وثُقبت. وأصبح ذاك الهيكل العظمي الذي كان يقبع في الرُّكن، مستتراً متوارياً خلفها، يطلُّ من ورائها بكل جُرأة ويُخيفنا بنظرات محاجره الفارغة.

أخبرناهم كذلك، أن الشبابيك في قسمنا، الذي هو القسم الوحيد في المدرسة، مُعطّبة مكسورة. نُغلقها بسلك معدني، وزجاجها مكسور، لذلك هي تدخل لنا الرّيح والبرد. وأن الطاولات أيضاً مكسورة الألواح، منها التي بلا لوحة الظهر، منها التي بلا أدراج ومنها التي تتأرجح وترقص بنا وتزغرد.

أطلقنا النّار كذلك على أفعال مُعلّمنا وقسوته علينا. تقيّأنا كل تلك الآلام. أبرزنا الكدمات والنّدوب دون خوف.

نزع الوالي نظّارته، وتفرّس في وجه المعلِّم الهلع وقال:

– بالفعل هذه آثار عنف يُمارَس على هؤلاء التّلاميذ.

أضاف الوالي، بلكنة غضب وحزم:

– هذا سيّئ جدّاً. الضّرب ممنوع في المؤسّسات التربويّة ولا يُمكن السّكوت عنه! سوف نتّخذ التدابير اللّازمة، وسوف يأخذ القانون مجراه في هذا الشّأن، وكلُّ شخص يتحمّل مسؤوليّته.

استبشرنا، كلّ التلاميذ بلا استثناء، لأننا انتصرنا على ذلك الغول. رفّت قلوبنا فرحاً. ترقرقت عيونُنا دموعاً غير دموع الحزن التي تكاد تُعمينا. تناثرت دموعنا على الطّاولات الخشبيّة الهرمة. زفّ لنا أصحاب الجاه والنفوذ بُشرى غدٍ أفضل. زُرعت البسمة على شفاهنا اليابسة المُشقّقة بعد أن فارقتنا سنواتٍ وسنواتٍ من تعب.

في لحظتنا اللّذيذة تلك نسينا الماضي والحاضر، البائسَين، الأسودَين، ولم نعد نفكّر إلّا في المُستقبل الجميل، في الرّبيع، كما وصفوه لنا. غُصنا في الخيال وسافرنا، على بساط طائر، إلى عوالم سحريّة رائعة ما فوق الخيال، تتلألأ كأنّها حجارة كريمة. عاودنا الحلم. قشعريرة لذيذة جابت أجسادنا، ونحن نحلّق في أعالي السّماء ونطير حول جبال من الزُّمرُّد والماس، وفوق أودية من العسل والشّوكولاتة وعصائر الغلال. نحن نحلم من جديد. هم يسردون على مسامعنا لائحة إصلاحات ومشاريع تنمويّة على المدى القريب والمتوسّط والبعيد، ونحن نحلم إلى ما لا نهاية. نحلم درجات درجات. من الأسفل إلى الأعلى. نتسلّق درج الأحلام. نصعد على مهل. توقّف الزّمن. لم يكن يهم كثيراً الوقت. فقط كنّا نحلم. نحن كنّا نحلم، نحلم، وكفى، بصغائر الأحلام. لم نعد

نرضى أن نأخذ الفتات من الأحلام. كانت مخيّلاتنا ضيّقة كحقّة تونة لا تتسع لأحلام من الحجم الكبير. كنّا حمقى. مُخيّلاتنا عقيمة. قنوعين أكثر من اللّازم. أو نزعم أننا كذلك. قصصْنا أجنحتنا بأيدينا. وزهدنا في الأحلام والأشياء الجميلة في الحياة.

كنا نحلم بمرحاض، نتغوّط ونتبوّل فيه بأريحيّة. فوعَدَنا الكُرماء بمرحاضين: واحد للأولاد، وآخر خاص بالبنات. وكلاهما مُرتبط بشبكة صرف صحّي وفيه ماء. فرحنا كثيراً بالمرحاضين. كنّا نحلم بحنفيّة مياه نظيفة. وَعَدونا أنّه سيقع مدّ مدرستنا، وكل قرية الدّخانيّة، بالماء الصّالح للشّرب في أقرب الآجال، وأنّ إدارة التّجهيز وشركة تزويد المياه، بصدد دراسة المشروع.

كنّا نحلم بمصباح كهربائي ينير وحشتنا، ومدفأة تشتغل على الكهرباء ولا تعبق برائحة النّفط والبنزين ودخانهما النتن، وتؤمِّن لنا الدفء. وَعَدونا بإدخال التيّار الكهربائي إلى المدرسة، وإلى كل المنطقة الرّيفيّة، وأنّ إدارة التجهيز والشّركة التّونسيّة للكهرباء والغاز، بصدد دراسة المشروع من النّاحية التطبيقيّة، وأن الأشغال على أبواب المرحلة التنفيذيّة. وكحلّ وقتي، يفي بأغراض المدرسة إلى أن تبدأ الأشغال، سيقع تجهيزها بمولِّد ميكانيكي متوسّط القوّة، يعمل على البنزين، ويولّد من أجلنا الطّاقة الكهربائيّة.

كنّا نحلم بقاعة درس نظيفة، ذات جدران ملساء ومطليّة بدهان قويٍّ وزكيِّ الرّائحة، لا يكسوها الاخضرار وسواد العفن. قاعة، سقفها لا يقطر علينا، في موسم الشتاء، عندما يهمي المطر. قاعة ندرس فيها بسلام دون خوف من أن ينهار السّقف المتداعي على رؤوسنا، دون خوف من الحساسيّة والرّبو وبقيّة الأمراض الصّدريّة. قاعة شبابيكها حصينة لا تُدخل البرد وتصمد في وجه نفيث رياح الجحيم. وَعَدونا بكلِّ خير. وقالوا لنا، وهم لا يكذبون، بأنّ بادرة شهر المدرسة تُعنى قبل كلّ شيء بترميم المدارس الرّيفيّة وإعادة تأهيلها معماريّاً. وعليه، فإنّه سيقع ترميم القاعة كليّاً، من أساسها إلى سقفها، وسيدهن سطحها بالزفت وموادّ عازلة أخرى كي لا يتسرّب ماء المطر. وأنّها سوف تُطلى وتُزيّن بألوان زاهية تشرح النّفوس وتجعلها تُقبل بنهم على المعرفة. كما أنّه سيقع بناء قاعة أخرى، جديدة، بجانب القاعة القديمة مُجهّزة، بكل شيء.

وستُحاط المدرسة بسور عالٍ وباب حديدي ضخم من أجل حمايتها، وسيقومون بترميم صنبة العلم. هذا بالإضافة إلى مطعم مدرسي "كونتينة".

كنّا نحلم أن تكون المدرسة قريبة من كل التلاميذ المشتّتين في القرى والمداشر الرّيفيّة، وأن لا نضطر إلى قطع كل تلك المسافات الطّويلة، كي نلتحق بالصّف، أين ننام من التّعب عوضاً أن ندرس علماً نافعاً. وَعَدونا، أكثر الله خيرهم، أنّه سيكون هناك مشروع للنّقل الرّيفي مخصص للتلاميذ الرّيفيين، وستكون هناك حافلات وجرّارات فلاحيّة وشاحنات خفيفة مُخصّصة للغرض، بالتنسيق مع هياكل وزارة النّقل والسُّلَط الجهويّة.

كنّا نحلم أن نُعامل كبشر وليس كحيوانات، ولا نُضرب ولا نُهان ولا نُسبّ. وَعَدونا أنّه سيُفتَح تحقيق في حادثة العنف، وسيأخذ القانون مجراه، وكل طرف سيتحمّل مسؤوليّته.

ثمّ مرّت الأيّام، وتتالت السّنون كأنّها أيّام. هكذا. في رمشة عين. عَشْريّة هبّت بها رياح الزمان وتناثرت مثل أوراق الخريف، مصفرّةً، على الأرصفة والطُّرقات. لم تتغير أشياء كثيرة. حقّقنا صفراً من كل تلك الوعود الجميلة والورديّة. ظلّت مدرستنا دُخانيّة بائسة، كما هي بائسة على الدّوام. ظللنا نحن بؤساء كما قُدِّر لنا أن نكون، وأرادونا أن نكون. ظلّ عَلَمنا مُنكّساً ومُمزّقاً وظلّ الماعز يأكُله ويأكلنا ويتبوّل على وجوهنا. ظللنا نتغوّط في الخلاء. ظللنا نشرب كالمواشي من ذلك الماء المُلوّث. ظللنا بردانين، جوعانين، ننام في تلك القاعة المتداعية وسقفها الخارب الذي يتبوّل على رؤوسنا. ظللنا نقطع الكيلومترات ذاتها إلى أن تيبّست أقدامنا وتشقّقت وكستها الجروح والقشور والبثور والتقرُّحات كأقدام العجائز. ظلّت الأماني عالقة بين يا ليت وآمين، في ثقب أسود.

تكسّر الحلم فينا كالبلّورة، من جديد، بعد أن لملمناه بجبيرة من الشّريط اللّاصق.

لم يحاسب ذاك المُنصِف على جرائمه في حق التّلاميذ. بلغَنا أنّه بعد تحقيق دقيق في المسألة، أصدرت الوزارة في حقّه نقلة عقوبة إلى مدرسة بعيدة عن مسقط رأسه، فما كان منه إلّا أن اشترى شهادة طبّية من اختصاصي في

الأمراض النّفسيّة يشتغل في مصحّة أمراض العقليّة بالعاصمة، تُفيد أن المعني بالأمر يعاني من حالة إحباط وانهيار عصبي يمنعانه من مزاولة مهنته كمدرّس. وقد أخذ بمقتضى تلك الشّهادة الباطلة عطلةً طويلة الأمد. أصبح يتقاضى مرتّباً وهو في بيته لا يفعل شيئاً، أو في حقله أين كان يُجبرنا على الأعمال الفلاحيّة بلا أجر، أو هو جالس في المقهى يحتسي الشّاي ويلعب الورق.

أمّا نحن، فبعد عطلة استثنائيّة لازمنا فيها أكواخنا لعدم وجود مُعلّم في المدرسة، جادوا علينا بسيدي النّاصر، رسول الحنان المنتظر، معلّمنا بالنّيابة، الجَنوبيّ، أبينا الرّوحي هديّةً لقاء صبرنا على المأساة كل تلك السّنين التي نزفنا فيها حُزناً في صمت. نحن، قلوبنا، كتبنا وكرّاساتنا، خريطتنا، علمنا والطاولات والمقاعد والسبّورة والجدران والسّقف والأشجار والطّيور والفئران وكلّ شيء في ذلك الخراب القميء.

أقبل مع سيدي النّاصر الخيرَ وأمّ الخير. فاض الخير. وأصبحت أمُّنا، السيّارةُ المباركة، تحمل إلينا في صندوقها الخلفي، النّفطَ لكي نتدفأ، والماءَ في قارورات لكي نشرب ونغسل أيدينا بالصّابون الأخضر، وورقَ المرحاض لكي نمسح عن مُؤخّراتنا الخراء، والجواربَ والمناشف والكنزات الصّوفيّة لكي نتدثّر ونُغيّر ثيابنا المتّسخة والمبتلّة، والخبزَ وعُلب السّردين والهريسة وشرائح السّلامي والجبن لكي نصنع لُمجاً ونأكل. وتتصدّق علينا من بطاريتها التي يمتصّها، في فرواتنا المبلولة، مُجفّف الشّعر، كما تمتصّ النّحلة الجوعانة رحيق الأزهار.

في آخر العشيّ، نلتفّ حول السيّارة المبروكة وهي جُثّة خائرة القوى لا تقدر أن تشتغل بعد وفاة البطّاريّة. يركب سيدي النّاصر في قمرة القيادة، يرخي مكابح اليد ونشرع في دفع السيّارة، إلى أن نبلغ المنحدر الخفيف، فنكفّ عن الدّفع، لكن نظل نلاحقها مهرولين خلفها وهي تنزلق من تلقاء نفسها إلى أسفل المنحدر، أين يُعيد معلّمنا تشغيلها بطريقة ما كانت تحيّرنا كثيراً. يدور مُحرّكها من جديد ونسمع أزيزه وشخيره. تتكوّن ضوضاء. تُبعث من جديد وتُنفخ فيها الرّوح وتعود من الموت. نفرح كثيراً رغم حيرتنا كيف فعلتها!

”إنّها خالدة! أمُّكم خالدة يا أصدقاء! إلى الغد تُصبحون على خير“. يصرخ سيدي النّاصر من بعيد، رأسه خارج النافذة، ويلوّح بيده.

كنّا نودِّعه كلّ عشيّ بالحماسة نفسها، ضاحكين مُقهقهين من أعماق أفئدتنا الحزينة المُضرّجة بالجراح، رغم كلّ شيء. نحن أيضاً خالدون. خالدون رغم أنف المأساة. تعوّدنا على المُعاناة وهي تعوّدت علينا واستطابت المقام بيننا. أصدقاء. أصبح اليوميُّ المعيش لدينا معاناة. العادي معاناة. والفرحة وأخواتها استثناءات نبحث عليها، عبثاً، كإبرة في كومة قشّ. نفرح مؤقّتا. نصطاد الفرحة بالصّنارة. لأنّ حياواتنا كلّها بائسات. هكذا تعوّدنا أن نعيش. تقسّت قلوبنا من المأساة والحزن. اكتسبنا مناعةً وصرنا لا نعبأ ولا نبالي مهما كان. تلقّحنا بالمعاناة ضدّ المعاناة وتصلّبت جلودنا مثل صدفة سلحفاة. عندما كنّا نفرح، كنّا نعلم أننا نفرح مؤقتاً، وأننا سنبكي عمّا قريب، في أقرب الآجال، لأنّنا ذواتٌ ملعونة. كذا فرحنا عندما انتقل إلى مدرستنا المحزونة سيدي النّاصر، وعوّضَنا عن الماضي وأيّامنا السّوداء. أغرقَنا في الحنان كأب أو كأخ أكبر. كنّا نحبُّه كثيراً، إلى درجة لا توصف. وهو ما جعلنا نخطئ ونرخي العنان للفرحة، مع العلم أننا نحسّ باقتراب كارثة بقدر تلك الفرحة المُحرّمة.

إذاً، مات وأم الخير في الوادي وقد أسالت حادثة وفاتهما غَرَقاً الكثيرَ من الحبر على صفحات الجرائد وتصدّر الخبر شاشات التلفزة.

على موجات الرّاديو المحمول. سمعت كل تفاصيل الحادثة. ألصقته على أذني. خشخشة. عدّلت الموجة. اختنقت بالبكاء.

حضرات المُستمعين، معنا على موجات الأثير... نقدِّم لكم موجز الأخبار.

مسؤول سامٍ في وزارة الدّاخليّة يكشف مُلابسات حادثة فقدان معتمد منطقة الدّخانيّة في الشّمال الغربي التونسي ورئيس مركز الحرس الوطني والمعلّم الشّاب...

أكّد مكتب الاتّصال والإعلام في وزارة الدّاخليّة، خلال مداخلة هاتفية في نشرة موجز أخبار السّاعة الثّانية والنّصف بعد الزّوال، على قناة

النّسيم التونسيّة يوم السّبت 11 نوفمبر 2017 أنّ حادثة فقدان السّيد المُعتمد قد جدّت على مستوى قنطرة ضيّقة تعبر فوق وادي الكبير بالجهة، وقد كان برفقته رئيس مركز الحرس الوطني وضابطٌ آخر، إثر محاولتهم تجاوز الوادي لفكّ عزلة تلاميذ مدرسة ابتدائيّة ريفيّة بالجهة. وقد أكّد الإطار السّامي أنّ الأمطار الغزيرة والمفاجِئة التي شهدتها المنطقة جعلت المسؤولين المذكورين يغادرون مقرّاتهم في جولة تفقُّديّة على أحوال مواطني الجهة ولفكّ عزلة تلاميذ المدرسة الابتدائيّة بالدّخانيّة، إبّان مكالمة هاتفيّة من المعلِّم الشّاب النّاصر بركات رحيم، يطلب فيها النّجدة بعد أن قطع فيضان الوادي الطّريق إليها. وأضاف المصدر نفسه أن فيضان الوادي قد سارع، في حدود السّاعة الحادية عشرة من صباح اليوم نفسه، إلى جرف سيارة الحرس الوطني التي كان على متنها معتمد الجهة ورئيس مركز الحرس والعون الثّالث، إلى جانب سيّارة المعلّم المدلي بنداء الاستغاثة، عندما حاول المُساعدة، على مستوى القنطرة، في جذب السيّارة الأولى. كما أوضح المُكلّف بالإعلام في وزارة الدّاخليّة أنّ العون تمكّن من النجاة من حادثة الفيضان، فيما لا تزال المساعي حثيثة للعثور على المفقودين المتبقّين (معتمد الجهة ورئيس مركز الحرس والمعلّم) في أسرع وقت ممكن، آملاً أن يكونوا على قيد الحياة.

بعد أيّام قليلة عثروا على جثثهم. انتشلوها من الوحل. وأصبحوا رسميّاً في عداد الأموات.

7

الخادمة

يوم السّوق الأسبوعيّة الماضية كان يُصادف رأس العام الهجري. نزلت برفقة جدّتي وخالتي هنيّة إلى البلدة من أجل قضاء بعض الشّؤون. كنت مسروراً لأنّ جدّتي ستطبخ لنا ملوخيّة بلحم العجل. هكذا هي العادات. في رأس السّنة، نطهو ملوخيّة كي يكون العام الموالي أخضر، ولو أنّ الأيّام تتشابه هنا، كلّها دُخان مُسودّ بشدّة في قرية الدّخانيّة.

في الصّندوق الخلفي لشاحنة النّقل الرّيفي، بدت خالتي هنيّة حزينة. صوتها منكسر ولا يدوّي كما هو من قبل. في العادة كانت تتحدّث كأنّها تخاصم أحدهم. في العادة تولول. تصرخ. تنهق. تعوي.

لست أدري ما ألمّ بها. تساءلت إن كانت سوف تبكم إلى الأبد. تبسّمت بمكر. قلت في نفسي: "ارتحت نهائيّاً من صياحها وعويلها".

لكن ما لبثت أن أجهشت.

"يا خسارة. ما زالت قادرة على النديب حتى وهي خرساء. هذه النّدّابة لا يمكن أن تخرس قط". أضفت في خيالي مبتئساً. وتلقّيت هزّة عنيفة من الدّولاب الذي يئنّ من حدبات هذه الطريق الفلاحيّة الوعرة.

أخَذَت جدّتي تهدئ من روعها وتربت على ركبتها:

– هنيّة! ماذا تحدّثنا بالأمس؟ موش مليح البكاء في راس العام. كفى حزناً.

لكن خالتي أخذت تندب أكثر فأكثر، وتلطم كذلك. كنّا لوحدنا في صندوق النّقل الرّيفي. استمرّت في البكاء والتّفجع هكذا كالمجانين. جعلْتُ سبّابتيّ في أذنيّ كي لا أسمع نواحها. لكن لا فائدة. فصوتُها يدخل عنوةً، حتّى في الأسمنت.

– اللّعنة على الفقر. اللّعنة. كاد أن يكون كفراً!

قالت جدّتي وهي متوتّرة. ذهب في ظنّي أنها لا تقدر أن تطبخ لابنتيها الملوخيّة. تذكّرت أنّهنّ يقاسمننا فرحة رأس السّنة في كلّ مرّة. انتبهت أن خالتي ما تزال تكمش تلك الرسالة التي وصلتها من زوجها. لم أفهم لماذا لم تمزّقها.

فهمت أن فحوى الظرف هو ما يبكيها هكذا بكل تلك اللّوعة.

عندما وصلنا إلى البلدة، اشترت جدّتي قارورة مياه معدنية وبعض مكعّبات السّكّر من أحد الأكشاء في المدخل. ثمّ انزوت بخالتي هنيّة في ركن، قرب دُكّان خُضار، مُنتهزةً فرصة خلُوّه من الزّبائن. رأيتهما تتحدّثان بصوت خافت. رأيت أياديهما تشتم أحدهم وتتوعّده. لقد حفظت جدّتي كما حروف الأبجديّة. كلامها. إحساسها. حركاتها. نظراتها. انفعالاتها. كل لغاتها. هما تغتابان أحدهم أثار غضبهما. في تلك الأثناء، انتهزت أنا انشغال جدّتي في غسل وجه خالتي هنيّة بالماء من القارورة وإطعامها السّكر، وتسلّلت إلى صناديق الغلال ثمّ تقرفصت. كان التّاجر يضع نظّارة سميكة الحواف، يُدَخِّن وينهمك في مطالعة صحيفة أسبوعيّة. انتبهت أن ساقه اليمنى مكسورة ملفوفة في جبس يصل إلى منتصف الفخذ، وبجانبه عُكّاز معدني يستند عليه عندما يريد النّهوض. كان البائع مشغولاً بقراءة الأخبار إلى حدّ أنّه لم يهتدِ إلى يدي وهي تتجوّل بين "زينة" الصّناديق. تذوّقت تقريباً من أغلبها، لكنّي ركّزت على صندوق المَوز. أجهزت، كقرد، على عذق كامل. تركت فسيفساء من قشور الموز والبرتقال. لكن لم أشبع بعد. دفعتني جشاعتي إلى الوقوف كي تمتدّ يدي إلى عذق أكبر في بطن الصّندوق. تفطّن إليّ البائع العجوز.

صرخ صرخةً جعلتني أقفز من الذُّعر:

– يا ابنَ الحرام. الكلب ابن الكلب.

ثم استند على عُكّازه وخرج من دُكّانه في أثري بعد أن هرولت كي أختبئ. لم أدرِ كيف استطاع أن ينطّ على العكّاز ويقطع كل تلك المسافة في لمح البصر على شيخوخته وتلك السّاق المعطوبة. أسعفني انزلاقه في كُدْس قشور الموز وسقوطه على ظهره كالغَيْلَم. كانت سّقطةً مُدوّية.

– آآآآآآه يا أسفل ظهري! آه يا ابنَ الكلب.

أثارت كل تلك الجلبة انتباه جدّتي التي كانت لا تزال تتجاذب أطراف الحديث مع خالتي. أسرعت صوبها مُستنفراً طالبا اللّجوء إلى حضنها. أدرْتُ ذراعيّ على خصرها وتواريْتُ خلفها. التفتت هنا وهناك ورأت البائع العجوز يتأوّه ويُمسك على ظهره، وجبيرته فوقه.

– ماذا فعلت أيّها الجنّ الأزرق؟ لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ضحكت خالتي أخيراً من ذلك المشهد الكوميدي. كان البائع لا يزال يصرخ من الألم الذي ألمّ بظهره وعظم مُؤخّرته. كان مقلوباً. مثل غيلم مائي مُسنّ، قلبه المدّ على الرِّمال.

حاولت الفرار. أن أهرب بجلدي. هرولت إلى الخلف. أردت أن أطلق أقدامي إلى الرّيح. بمقبض عصاها الخشبيّة المعكوفة، ألقت جدّتي القبض عليّ، من كعبي، كما تفعل مع جديانها الأشقياء، ثمّ سحبت بعزم. طُرِحت على التُّراب، مَقلوباً أيضاً، كسلحف صغير. انهالت عليّ الرّكلات من إصبع جدّتي الكبير، المعكوف هو الآخر.

– آآآآآه يا مُؤخِّرتي!

– سوف يُصيبني بالجُنون هذا المَلعون. إنّه ابن جنّ أرقط.

أردفت جدّتي وهي تأخذ بيدَي البائع مكسور السّاق وأسفل الظّهر معاً، تعتذر وتطلب السّماح. أبى البائع في بادئ الأمر، إلّا أنّ عرض جدّتي بأن تُسدِّد ثمنَ الغلال المسروقة التي استقرّت في معدتي، قد أرضاه أخيراً. وقد كان كلُّ ذلك يدور أمام عيني خالتي هنيّة التي لا تزال تضحك إلى أن بان ضرساها الوحيدان المُتبقّيان في ذاك الفم المهدوم كَخَرابة.

بعد مشوار طويل، دميت فيه قدماي من المشي في بطحاء السّوق والأنهج، ابتاعت جدّتي أخيراً كل مُستلزمات الملوخيّة والأغراض الأخرى للمطبخ. توجّهنا بعد ذلك إلى بائع متجوّل وشربنا ثلاث كؤوس عصير ليمون من عصّارته تلك. ظفرت أنا أيضاً بنبّوت سُكّري.

عندما انتصف النّهار واستقرّت كرة الشّمس في كبد السّماء، ارتدنا عائدين إلى محطّة النّقل الرّيفي. أصرّت جدّتي وخالتي أن تُجريا مكالمة من كابينة

الهاتف العُمومي، في زاوية المحطّة. صعدت أنا مع قفّة الخضراوات في الصّندوق الخلفي لإحدى العربات التي تصدّرت صفّ الانتظار.

بعد بُرهة أقبلت جدّتي مُتجهّمة، مُقطّبة الجبين وخالتي نادبة، نائحة من جديد. يا ويلي ويا وجع رأسي. جعلْتُ سبّابتيّ في أذنيّ. لم يفلح ذلك في صدّ موجات النّواح القويّة. ندّابة. خالتي ندّابة. لهذا يستأجرها أهل القرية كي تنوح في المآتم وتَندب، وتزغرد في الأعراس. فعّالة كمِجوَز.

في تلك الدّقائق القليلة التي تهدأ فيها، وتلتفت كي تشرب من قارورة الماء، فهمْتُ من كلام جدّتي أنّ المُكالمة المشؤومة كانت مع العَم صالح زوج خالتي هنيّة، والتي دار فحواها حول مُستقبل حوريّة. لم أفهم بعده شيء فقد طفقتا تتكلّمان بالألغاز كما جرت به العادة.

أطرقت أصغي في صمت مُريب.

في اليوم الموالي، جاءت سيّارة مرسيدس خضراء تحت زخّات من مطر. لاقط موجات راديو طويل يتأرجح على السّقف. هدير مروحة تدور. تشقُّ الحصاة والغُبار والأشواك على المسلك الوعر. أطلقت مُنبِّهَها الجهوريّ ثلاث مرّات. كان يقودها كهل أربعينيّ. وامرأة مُتأنِّقة، ذات وقار تجلس في الخلف. اتّضَح فيما بعد أنّهما زوجة أحد المديرين وسائقها الخاص. جاءا من العاصمة خصّيصَى من أجل إتمام صفقة حوريّة، التي خرجت من كوخها باكيةً تحتضن جراباً وصُرّة أدباشها، تودِّع أمّها وأختها الصّغيرة.

أنزلت المرأة المُتأنِّقة البلّور. وضعت مظروفاً أبيض في يد خالتي هنيّة. لم تترجّل من عربتها الفخمة. كانت تخاف على حذائها اللّماع من أن يطاله الطّين.

نزل السّائق. فتح الصّندوق. أخذ من يد حوريّة أكياس تلك الخرق البالية. دجّها في الدّاخل. أغلق الصّندوق من جديد. فتح الباب الخلفي من جهة اليسار. نَخَسَها إلى الدّاخل. كاد أن يقحم رأسها في إطار الزجاج. ركب. أغلق بابه. أدار المُحرِّك من جديد. أزيز. قام بنصف دورة في الباحة أمام الكوخ. ضغط البنزين. وانكفأ مُدبِراً إلى الطّريق المُعبّدة، إلى العمران، من حيث جاء، ومعه حوريّة. حوريّة المَخطوفة. حوريّة الخادمة الجديدة. حوريّة مُنظّفة خراء

المراحيض. لعبة الأطفال. حوريّة الطبّاخة. حوريّة المَبيعة. حوريّة العَبْدَة. حوريّة البائسة. حوريّة المُعينة المنزليّة الجديدة إلى أجل غير مُسمّى.

لم يتسنَّ لي وداعها، فقد كنت أرعى العنيزات في التّل الأخضر. مرّت من أمامي السيّارة الفخمة الخضراء، مُختالة بين الرّوابي. ذاك اللّاقط ما يزال يتأرجح ويتمايل مع نسيم الرّيف. تراءى لي أيراً مُنتصباً مُتفاخراً، يتدلّى علينا. العادم زَفَر عليّ وعلى كلّ الرُّعاة هناك في التّل، دُخانه السّميك. قذفتنا الدّواليب القذرة بالحجارة. دخل الغُبار الكثيف في أعيننا العمياء. احمرّت ودَمعت من الحكّة. سَعلنا. عطَسنا. أكلنا الغُبار. ترنّحنا. نَهرنا صوت المُنبِّه. جزعت العُنيزات. تقافزت الجديان.

رأيت حوريّة تلوِّح من وراء البلّور. ثمّ ما لبثت أن تباعدت. لم أشعر كيف قفزت من مكاني وركضت خلف العربة المُستعجلة. صرخت. لوّحت. ضاعفت نسق الجري. أسرعت. وأسرعت. لم ألحقْها. ركضت إلى أن انقطع عني النّفس وامتلأت رئتاي بحبّات الغبار. لكن لم أستطع أن أودّعها.

راحت تتباعد إلى أن أصبحت مُجرّد سراب بين الهضاب، سحابة غُبار، حُصيّة واحدة بعيدة جدّاً.

8

سَنةُ التّخرّج

ذاك اليوم كنت جالساً إلى طاولتي الجديدة على كرسيّ بلاستيكي أبيض قبالة النّافذة، أدرس. المكان مزدحم بالصّحف القديمة. أشعّة الشّمس تتسلّل داخل الكوخ. حبّات غبار وقشور تتقلّب وسطَ حُزيْمات الضّوء المُنعكسة على بياض الطّاولة وسُطور جريدة هذا الأسبوع. فاجأني يعسوب ولج من مربّع البلّور المكسور في النّافذة. لحق في أثره، بكل وقاحة، دَبّور كبير. تضاعف الطّنين حول رأسي الذي أكله الدوّار من جرّاء التفافاتهما الدّائريّة المتهوّرة به. دعسوقة فتيّة طائشة حاولت الالتحاق بفيلق الطّيران الاستعراضي فوق رأسي. لكنّها لم تحذق مناورة الدّخول، فتركت الفرجة واصطدمت مباشرةً بالبلّور. أحدث الاصطدام نقرةً خافتة على الزّجاج. ظلّت هناك في مكان الحادث ملتصقة بالزجاج. انفجرت الحشرة وتحوّلت إلى نُقطة سوداء تسيل منها قطرة من سائل شفّاف.

قمت بلفّ إحدى الجرائد المُمزّقة على شكل أسطوانة. ثمّ انطلقت في الصّيد. وشرعت أتقافز وأطير خلف اليعسوب والدّبور وألوّح بالأسطوانة الورقيّة كأنّها مضرب وكأنّهما كُرَتا قاعدة.

مثلي مثل كل التلاميذ الرّيفيّين، انقطعت عن الدِّراسة في سنٍّ مبكّرة. لم نكن لنصمد أكثر في وجه البؤس الذي التهمنا برويّة وهضَمَنا على مراحل. جلُّ التلاميذ ينهارون في السّنة الرّابعة ابتدائي. هي سنة التخرُّج بالنّسبة إلينا. أمّا أنا فقد تخرّجت في السّنة الثّالثة بعد أن رسبت مرّتين. تركت كلّ شيء. سئمت كلّ شيء خاصّة بعد حادثة موت سيدي النّاصر وأمّ الخير معاً في قاع الوادي اللّعين. قتلنا الحزن على فراقهما. بكينا مطوّلاً. مرضنا. ودخلنا في حداد أبدي، متبرِّئين، نحن الملاعين، من نحس الفرحة التي جنت علينا وعلى معلِّمنا

الحنون. كتب علينا الحزن وختمنا بخاتم البؤس منذ أن قُطعت حبالنا السّرّيّة في قرية الخراب.

في الحقيقة، كان قرار الانقطاع عن الدّراسة، بالنّسبة إلى كلٍّ منّا، قراراً حتميّاً لا مفرّ منه. الأمر محسوم. وليس هناك ما نندم أو نتحسّر عليه. بعد كل شيء، أين سنصل؟ إلى المرّيخ؟ نحن كنّا ندرس لنفتح أدمغتنا قليلاً ونختلف بعض الاختلاف عن البهائم ليس إلّا. كنّا نعلم جيّداً أننا معطبون وعاجزون عن الفهم. أدركنا أخيراً أن أجنحتنا مكسورة ومنتوفة الرّيش منذ كنّا في البيوض، وستظل هكذا بعد التّفقيس ولن تتغيّر أبداً. نحن لا يمكننا الطّيران، وإن فعلنا فلن نحلّق عالياً ولن نذهب بعيداً. سوف نسقط على رؤوسنا ونتهدّم. استوعبنا، بعد كل تلك الدّروس القاسية فكرة أنّ الأحلام ليست من حقّ البؤساء، وأنّ الماعز أولى بها. تعلّمنا الدّرس، بالعنف، على الطريقة الصّعبة.

إنّ مدرستنا عقيمة. عاقر. لا يمكن أن تنجب طبيباً، محامياً، مهندساً، أستاذاً أو صحفيّاً. مدرستنا متخصّصة في إنتاج وتكوين الرُّعاة دُفعاتٍ دُفعات. أغلبيّة من يتخرّج من السّنة الرّابعة يتوجّهون إلى رعي الأغنام والماعز والأبقار بأجرة يوميّة على قطيع فلان وعلّان. أيادٍ عَمولة وبأجر بخس. نسبة أخرى من المنقطعين عن الدّراسة ينزحون إلى المدينة، تونس العاصمة وضواحيها في بعض الأحيان، أين يشتغلون بنّائين في "المرمّات"[6] مقابل 10 دنانير اليوم في أفضل حال. آخرون يلتحقون بالجيش ولا يعودون. أمّا الإناث فيشتغلن في معامل الخياطة أو مُعينات شؤون منزليّة بقرشين عند أُسر ميسورة. هذا وتختار النسبة المتبقيّة من المتخرّجين طريق الانحراف (سرقة، نشل، بيع الخمر خلسةً).

6 مواقع البناء.

كذا هي الحال. سلّمنا أمرنا إلى الربّ. ما بأيدنا خلقنا تُعساء!

أنا سعيد، تخرّجت من السّنة ثالثة ابتدائي. كان لي أسبابي الخاصّة، بالإضافة إلى كل تلك الأسباب العموميّة الأخرى. أوّلُها مرضُ جدّتي وموتُ سيدي النّاصر. لقد أتعبت جدّتي كثيراً. هزُلت وأهلكها بَردُ المفاصل. لم تعد تقدر على

إيصالي إلى المدرسة وإعادتي إلى البيت منها كلّ يوم. أصبح مجرّد القيام بشؤون الكوخ اليوميّة يقطع أنفاسها ويجعلها تلهج. لقد عانت جدّتي في تربيتي الأمرّين. رغم كل شيء هي لم تكن تريدني أن أنقطع عن الدّراسة. عندما رسبت في العام الأوّل قرّرت أن أنقطع. لكنّها رفضت مطلبي. أجبرتني على العودة في سبتمبر الموالي عند انطلاق السّنة الدّراسية الجديدة. أغرتني بميدعة جديدة وثياب جديدة وحذاء جديد. أرادت أن أعود إلى العام الجديد بحلّة جديدة ونفتح صفحة بيضاء وننسى ذكريات الماضي. كانت المدرسة مُكلفة وقد اضطرّت إلى بيع العنزة لتسديد المبلغ. عدت فوق قلبي. عدت. لكن، طوال الدّروس، كانت مؤخّرتي تجثو على كرسي فيما دماغي خارج القسم، لذلك رسبت منذ الثّلاثي الأوّل. زاد الطّين بلّة موت معلِّمنا ميتةً شنيعةً. وأُجْهز على نفسيّتي المُحطّمة. صرت أكثر تصميماً على مغادرة تلك المدرسة الملعونة التي حصل لي فيها كل شيء سيّئ يمكن أن يحدث لامرئ في الحياة.

هناك أيضاً لم يكن لي أصدقاء. كنت منبوذاً. الجميع يتحاشاني كأنّي موبوء. لست أدري لماذا وما فعلت أنا كي أجد ذاك الجفاء.

لقد آذوني وتنمّروا عليّ. مدرستنا تغلي بالمتنمّرين الهمج. كانوا يضربونني وينعتونني بـ"اللّقيط" و"ابن الحرام". لم يكن لي أب يدافع عني. أبكي في صمت. جدّتي كانت دائماً تخوض جشارات من أجلي عندما كنت صغيراً. فيما بعد، عندما كبرت، أصبحت أستحي من الشّكوى إليها كالجبناء، وهي من تدعوني برجل البيت. لم أخرج من فقاعة الصّابون تلك التي أختبئ فيها. ظللت على عهدي، جباناً وعبداً للخوف، هرّاً بين النّمور. ذُللت كثيراً في تلك المدرسة. كثيرون بصقوا على وجهي المنتفخ من اللّكمات. لم أكن أقدر أن أدافع عن نفسي بالشّكل المطلوب. كنت أتشاجر لكن أخسر دائماً لأنّهم كُثُر وأنا يتيم وحيد. كنت أهوي على التّراب اليابس بعنف، فينقضّون عليّ. زمرة متنمّرين كاملة. كنت أحصّن وجهي تحت مرفقيَّ وأبدأ في تلقّي الضربات من كلّ الجهات وسماع الشّتائم:

"ابن العاهرة"، "ابن الزّنا"، "ولد الحرام"، "الفرخ"، "النّغل"...

لم تكن لي فرصةٌ للنجاة. هم تُيوس وأنا كنت ما أزال جَدِيّاً نحيلاً صغيراً. لم أكن أدافع عن نفسي وأردّ الفعل بشرّ لأنّي كنت أحسّ أنّي جروٌ أبخر بلا أنياب.

الفرار. الهروب هو الحل. كما تفعل الحيوانات العاشبة عندما يهاجمها مفترسٌ ما.

تكاثرت الأسباب واكتنزت ككرة ثلج تتدحرج إلى سفح جبل متجمّد. عندما أخبرت جدّتي عمّا كانوا يقذفونني به من سباب لم أكن أفهمه، اقتنعَت على طول ووافقتني من دون عتاب ولا مَلام. فرحْتُ عندما انقطعت عن الدّراسة. لا أنكر ذلك. لكن في الوقت نفسه تألّمت عندما رأيت حلمي يتبخّر ويتصاعد إلى فوق ثمّ يمضي مثل بخار طنجرة تغلي وتزيح عنها، فجأة، الغطاء.

9

الحجر

كان صباح يوم سبت معتدل، مقارنة بأسبوع بارد كالأسبوع الفائت. انقشعت السّحب تدريجيّاً وبانت زُرقة السّماء الشّاحبة من بين الغيوم المتمزّقة كالقطن القديم. نسيم لطيف على غير العادة. لم يكن هناك ريح. لم تكن تمطر. لم يكن هناك نشاز. زقزقة العصافير طغت أخيراً على نهيق الحمير وصياح الدّيوك المفجوعة. كان الجوُّ هادئاً نسبيّاً في هذه الشِّعاب المتوتّرة التي لا تهدأ. بدا الأمر غريباً لأنّنا لم نكن متعوِّدين على الطُّمَأنينة. كنّا متوجّسين من هذا الهدوء المفاجئ الذي يشبه هدوءَ ما قبلَ العاصفة الثّانية.

في سلام ذاك الصّباح الشّاذ، كانت جدّتي تُطعم الأتان والعنزة، بينما كنت أنثر الشّعير للدّجاج. كم كان يعجبني نثر الحب! بالرّغم من أنّي لم أكن أحذق الطّريقة جيداً، وأنّ كمّية الحبّ التي تستقرُّ خارج القن – عن سوء تصويب – تتجاوز رزق الدّجاجات بداخله. وهو ما يدعو جدّتي إلى معاتبتي وحثّي على التّأنّي والتركيز، فقد عرّيت رأسها وجوّعت دجاجاتها.

زأرت المحرِّكات وتصاعد الغبار من على تلك الأرض القاحلة. صدحت أبواق بصراخ دميم يشبه صراخ صفّارات الإنذار. ارتجفت. سقط غربال الشّعير. تناثر الحَبُّ هنا وهناك في كل مكان كما تبعثرَتْ أفكاري بين المخاوف ولهفة الاطّلاع.

امتعضت جدّتي. ركضت صوبها خائفاً واستترت خلفها مُتشبّثاً بردائها القزوردي المزركش. ألقت حُزمة القشّ داخل الإسطبل. استدارت في اتجاه موكب السيّارات وهي تردّد مُتوجّسة:

– يا ساتر! إن شاء الله خير.

بعد دقائق وصلوا إلى رُقعة الأرض المنبسطة بجوار مزرعة العُمدة. كان أسطولاً كبيراً من العربات. من بينها ثلاث سيّارات إسعاف. كانت هناك أيضاً

سيّارتا شُرطة. واحدة بيضاء خفيفة، بشاشيّة قرمزيّة تتوهّج أعلى كابينتها. في وسط الموكب كانت تسير حافلة ضخمة، ثُقلُّ مجموعة لا بأس بها من أصحاب المآزر البيضاء، أطبّاء وممرّضين. مباشرة، في مقدّمة التّشكيل كانت تسير شاحنة العمدة خليفة، "الإيسوزو" الرّماديّة، تفتح الطّريق لكل العربات الأخرى التي تتقفّى أثرها بين المسالك الفلاحيّة الوعرة.

تقدّمت جدّتي قليلاً وهي ترفع حزامها الذي انزلق إلى الأسفل، على خصرها الهزيل. أزاحت غصناً من أغصان التّينة يحجب الرّؤية. أطرقت تتأمّل السّهل أين تجمهروا وهي تسعل وتتمتم. لم يكونوا بعيدين جدّاً. مسحت راحتيها المتّسختين بغبار القشّ في لحافها ثم التفتت إليّ أنا الذي بدوت محتاراً أتفرّس في وجهها المُبهم وقد تربّت فيه تجاعيدُ عشوائيّةٌ جديدة، ثم قالت:

– إنّه العمدة وزبانيتُه!

صمتت قليلاً. حرّكت غطاء رأسها. تسرّب الشّيب. عدّلت ربطه. ثمّ أردفت:

– وجه الغراب خليفة لا يأتي من ورائه خير.

أقلقني كلامها ووجهها المتوتّر.

كانت عرباتهم تحمل بداخلها الكثير من الصّناديق والأشياء. في غضون ساعة تقريباً، وبمساعدة خصيّيين من عبيد العُمدة الذين يخدمون في ضيعته، نُصبت الخيام البيضاء، عملاقةً عظيمة كأنّها الأهرامات. وضُرب حولها طوق من الحواجز المعدنيّة. ووُضعت بداخلها طاولات بلاستيكيّة كبيرة وأسرّة.

في كل مكان كان العمدة، بُبرنسه البنّيّ العريض، "الموزر"[7] على كتفه، يجرّ إزاره ويحرث السّاحة، جيئةً وذهاباً، يقف على أشغال المُخيَّم. يأمر وينهي ويوجّه الجزّار الذي ذبح الكبش السّمين واستعصى عليه سلخه. يُوبّخ سائق الجرّار الذي اقترب من المخيَّم أكثر من اللّازم فأثار زوبعة من الضّوضاء والغبار. ينتقد الرّجال الذين دقّوا عروض الخيمة الكبيرة في وضعيّة مائلة.

7 بندقيّة قديمة.

عندما انتصف النّهار واستقرّت كرة اللهب في كبد السّماء، نضجت الوليمة التي أُقيمت على شرفهم. وهلّت قصاع الكسكسيّ والأطياب وأطباق اللّحم

المشوي من إعداد حريم العمدة. وتوزّع الجمع الأبيض كالدِّببة القُطبيّة الجائعة حول تلك الموائد المُستديرة المزدحمة، يأكلون بنهم ويضحكون.

انطلق العمل في حدود السّاعة الثّانية ظهراً. علمنا عندما دقّوا على باب كوخنا، وكل الأكواخ المجاورة، أنّها قافلة صحّية، تمّ تشكيلها من وزارة الصحّة العموميّة لتفقُّد الأرياف النّائية. تطوّع كثير من الأطبّاء للمجيء إلى الأدغال. كانت حملة واسعة لمكافحة مرض السّل بالأساس، المتفشّي في الأرياف التّونسيّة الفقيرة، ولتفقّد الأحوال الصِّحيّة في القرية ككلّ.

نحن، جدّتي وأنا، كنّا بدورنا من ضمن المدفوعين إلى هناك، رغم أنّنا لم نكن نريد.

كانت هناك خيمةٌ للنّساء وخيمة للرّجال وأخرى للأطفال، إناثاً وذكوراً مُختلطين، تفصلها عن بعضها حواجز معدنيّة. تفرّقْتُ عن جدّتي في وسط السّاحة اللّعينة. حينما أرادوا الفصل بيننا لكي يلتحق كلٌّ منّا بالخيمة التي تناسب جنسه وسنّه. بكيت. تمسّكتُ بقوّة بيدها حتّى ظننت أنّهما قد تصلّبتا على بعض كما تتصلّب الخرسانة على الآجرّ أو الحجارة. هناك، في الصفّ، أمام خيمة الصّغار، واصلت النّشيج، بصوتٍ مكتوم، بحشرجات خفيضة مُتلعثمة لكنّها بدت مسموعةً كفاية لكي أعاتَب من أجلها وأُقذف.

مَكَثوا في شعابنا المريضة ثلاثة أيام بلياليها، استباحوا فيها أجسادنا، وعبثوا فيها بالحقن والإبر كما شاؤوا. من يكونون؟ من هؤلاء؟ وما شأنهم فينا؟

بدوا كمخلوقات فضائيّة، تغزو قريتنا. كلُّهم متماثلون، في بزّاتهم البيضاء. كلُّهم مُخيفون جدّاً، بتلك القفّازات المطّاطيّة التي تصل إلى المرفَقين، والكمّامات القبيحة، زد عليها القلنسوات الرّماديّة وكذلك تلك النظّارات سَميكة الإطار، واسعة الفُصوص. كان مظهرهم بشعاً إلى درجة كبيرة.

رجل الفضاء الشّاب الذي فَحَصني في خيمة الصّغار، كان لطيفاً معي. ناولني مصّاصة بطعم الكرز ولوح شوكولاتة. كان ذاك الدّرج يزدحم بالحَلْوَيات والنّبابيت السّكريّة!

سرعان ما انهال عليّ بالحُقن والتلاقيح والقطرات المُرّة والفحوصات.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة، تجهّزت نتائج عيّنات الدّم. دمنا الذي شفطوه كلّه، كمصّاصي الدِّماء، في أنابيب تحاليل بلاستيكيّة صغيرة مختلفة الألوان، تمّ إرسالها إلى مخابر المستشفى الجهوي بالمدينة. كما أنّ الخواتم الجلديّة التي طبعونا بها، على وجوه سواعدنا الأماميّة، قد أزهرت جُلّناراً أحمرَ ملتهباً.

ظلّ خاتمي مُنطفئاً. أمّا خاتم جدّتي فقد توسّع قُطره والتهب التهاباً حادّاً في احمرار شقائق النّعْمان. كما تفجّرت في وسطه فقاقيع وحُبيبات من القَيح وجُلطٍ سوداء. وعليه، فإنّي سليم، لكنّ جدّتي مريضة بداء السّل وستُنقَل على متن سيّارة الإسعاف، إلى مُستشفى الأمراض الصّدريّة في "أريانة"، أين ستقيم فترة طويلة، هي والمصابات الأخريات، من أجل معالجتهنّ على أمدٍ بعيد.

كانت صدمةً مروّعة طحنت قلبي وحوّلته إلى عجينة حزن، عندما علمت أنّي سأفارق جدّتي. استغربت. كيف لم أُصب بالعدوى وأنا أنام في حجرها كلّ ليلة؟ أخبروني وأخبروها أنّ تفسير ذلك يكمن في تلقيح حُقِنْتُ به في المُستوصف عندما أخذتني جدّتي إلى هناك محموماً وأنا صغير. وقد لاحظوا آثار الحقنة في أعلى كتفي اليسرى. لم أصدّقْ شيئاً ممّا قالوا. ارتميت في حضن جدّتي وطوّقت خصرها بذراعيّ المرتعشتين وأحكمت عليه قبضتي وتحجّرت. انفجرْتُ كقنبلة بالبكاء. بكيت بحرقة كبيرة وحزن عميق. تمنّيت أن أكون مريضاً. لم أعد أخشى المرض. ترجّيت أن يعيدوا فحصي من جديد عسى أن يجدوني مصاباً كي أرافق جدّتي إلى المستشفى. لم أستوعب الأمر. كنت مصدوماً. كنت سكرانَ بالحزن. لم أصدِّق حقيقة أنّ جدّتي ستذهب وتتركني، وأنني لن أعيش معها في كوخنا البسيط إلى أجل غير مسمّى، إلّا حينما رأيتها، في سيّارة الإسعاف، تلصق وجهَها بالبلّور الخلفي، تبكي وتلوّح إليّ وهي تبتعد، شيئاً فشيئاً، وأتاننا تنهق بلوعة، وعُنيزتنا وجديانها يصيحون، والجرو الصّغير يعوي كجراء الذئاب، وأنا أبكي وأركض، أبكي وأجري، أبكي وأقفز في أثر شبح السيّارة، وراء سرابها، خلف غبارها والحصاة التي تقذفهما دواليبها، إلى أن تعثّرت في حجر ناتئ وسط المسلك المغبر، فسقطْتُ بعنف، وسُلخَ مرفقاي

وركبتاي، وتمزّق ثوبي وسروالي ومعهما روحي إلى خرق بالية. لم أدركها. ضاعت واختفت بين سحابات الغبار.

شدّت القافلة الرِّحال إلى العاصمة مدبِرةً بعد أن سرقت مني أمّي وأمّهات أخريات. أُغلِقَ كوخنا المتواضع بعد رشِّه بالمُعقِّمات والأبخرة، وخُتم على قفله وشبابيكه بالشّمع الأحمر.

وجدت نفسي يتيماً مرّةً ثانية، أعيش في حزن، أنا وصبيان وصبيّات أُخَر، داخل ملجأ ملتصق ببيت العمدة، غرباءَ، عبيداً، في كفالته وتحت بُرنسِه ناصعِ البياض.

الفصل الثّاني

فرخ البؤس
من البيضة إلى العَدَم

أن نحيا هو أن نعاني. أن نبقى على قيد الحياة هو أن نجد معنىً ما في المعاناة.

فريديريك نيتشه

هنالك الكثير من المآسي في الحياة تكفي لوحدها كجواب، وأيُّ اجتهاد بعد ذلك كلامٌ زائد.

واسيني الأعرج

وسألت الربّ دون خوف، عمّا إذا كان يعتقد حقّاً أنّ البشر مصنوعون من حديد ليتحمّلوا كلّ هذه الآلام والعذابات.

غابرييل غارسيا ماركيز

1

عن مسوخ الفجر

حدّث البوم العجوز قال...

أزهقَ اللّيل سوادهُ بعد طول احتضار. وقد أقبل الفجر متفتِّحاً من بين قطرات الندى، وبدأ يحيك خيوطه على مهل من بكرة النّور. طغت حمرة ذابلة تخترق الأفق النّائم. صدح كورال الدّيوك في صياح مبحوح متقطّع، يتردد صداه في ذلك الفراغ. أنير فانوس الجامع. تعالى صوت الأذان في البوق الصغير الذي كان يتوسّط عروض الصومعة. يقيمه مؤذّن مبكار اسمه عُبيد. لست أدري ماذا يفعل شخص بتقواه في مثل هذا المكان القميء.

كان يهذي، في عالم فوقي، ويغرّد خارج السّرب. لم ييأس بعد. ولم يقطع الأمل من هؤلاء الأبالسة: "الصلاة حضرت. يهدينا ويهديكم الله. الصلاة خير من النوم". ويعيد: "الصلاة خير من النوم". ولا حياة لمن تنادي. ما من ملبٍّ لِنداء الفلاح. أهل القرية المحزونة نيام. موتى يشخرون.

لم يفهم عُبيد أنه يرهق حباله وحسب. كلّ يوم يُصلّي وحيداً في صفوف شاغِرة من البشر. ملاك في مغارة شياطين. أبناء قحبة. يقضون ولا يهتدون. وكأن أبواقهم مسدودة بالأسمنت. الدّاء في تربة تلك الأرض المسمومة. لقد تفشّت فيها ديدان الشرّ وانتهى. تربة مريضة، أصابها العقم الأبديّ. أرض بور، سوف تظلّ مَحروقةً جرداءَ. لن تنبت إلّا الشوك والسِّفاف، وإن حُرثت تربتها وقُلِّبت بسبعة محاريث.

الصّباح رباح. تنهض فوزيّة باكراً. تقضي حاجتها. تغتسل. تتدثر جيداً. تزيل السلسلة عن الباب الصدئ. وتحمل جرابها وتمضي في طَلَب القوت. تعترض سبيلها الجثة المتعفّنة نفسُها التي تنفق كلّ يوم أمام الكوخ. إنها جثة بعلها

السكّير. غائباً عن الوعي. مرمياً ككومة زبالة. يعبق. وتفوح من أسماله رائحة البول الجاف والكحول. متيبِّسة ارْرَوْرَقَت من البرد.

في كل مرّة كانت تقول إنّها ستتركه يتجمّد هناك ولن تبالي، فقد طفح الكيل. تحاول تجاهله وتمرُّ من دون أن تنظر إلى الخلف، كأنّه غير موجود. كانت في دواخلها تتمنّى لو يموت وتخلص منه ومن أفعاله. لكن في كل مرّة يرقُّ قلبها وتتذكّر أنّه بهمِّه وشؤمه يبقى زوجها. ذلك هو المكتوب وما غرفت ملعقتها من ثريد القدر. لا تبتعد إلى الأمام سوى بضع خطوات متثاقلة يائسة تحت ملامة ضميرها الثّرثار والمُتكلِّف. تتوقف. تغمض عينيها. تتنهّد وتزفر زفرَةَ عجائز فيها من الحزن والحسرة ما يمزّق نياط القلب. ثم لا تلبث أن ترجع على أعقابها. لترى ما تفعل في تلك الجثّة المسجّاة في الخراء. تعود البائسة بشيء إيجابي وحيد. لقد قرّر ذلك الميّت الحيّ أن ينفق آخر هذه اللّيلة عند عتبة الكوخ. في ليالي غيرها يحلو له أن يتوفّى تحت شجرة البلّوط بعيداً أعلى الهضبة. مما يجعلها تستعين بالنقّالة أو في بعض الأحيان بالأتان لتعيده بشقاء إلى الكوخ قبل أن يتحوّل إلى قالب جليد.

تضع من يدها الجراب. وتهمّ بالبدن الثّقيل تجرّه من الأكتاف. من يراها تئنّ وتعاني يستعير في مخياله صورة النّملة الشّقيّة. وهي تقارع جُعلاً لعيناً بأضعاف حجمها، مات وهو ما يزال متمسِّكاً بكرة الرّوث المتدحرجة خاصّته.

كانت الزوجة الأصيلة تتأوّه وهي تجذب جثّة ثقيلة لسكّير ثَمِلٍ وهامد كالموتى. تواصل الجرّ. إلى أن تجاوز البدن إطار الباب الحديدي. كانت تحرِّكه بحذر هَوسيّ مخافة أن يصطدم رأسه بحافة مذبّبة فيُجرَحَ أو تعور عينه بسلك معدنيّ. من يدري. المصائب لا تأتي فرادى. لقد كانت تُخلص للرجل رغم ما كان يذيقها بجوْره من عذابات. بل كانت تسرف في طيبتها معه. تخلع عن قدميه الوضيعتين جزمة العساكر السّوداء. تتسلل رائحة الجوارب المقرفة التي كانت تختبئ بالدّاخل. تصعق. لا تُحتَمل. إلّا أنّ امرأته كانت تكتم أنفاسها وهي تضع الجزمة حذو الباب وتكوِّرُ الجوارب المرقّعة. ثمّ ترمي بها في كومة الغسيل في المرحاض، هي وبقيّة ملابسه الدّاخليّة المتّسخة بالخراء والبول. رويداً رويداً، خرقة تتلو خرقة، يتكوّن جبل من ثياب قذرة تنتظر عودتها في

المساء. تبكي ولكن لا تواسيها الدموع إلّا قليلاً. لا تلبث أن تكفكفها بأكمامها لأنّ الوقت يدهمها. وقد تأخّرت. وليس هناك متّسع منه للنحيب والندم. الذي صار صار. وكما يُقال الملام بعد القضاء بِدعة. إنّه مَكتوب. بسرعة تضع الكلب في السّرير. تغطّيه ببطّانيّة صوفيّة. يستحلي ذلك بأن يتقلّب أو يتمتم في لاوعيه. تهجوه وبختها الطّائر. تغلق عليهما الباب معاً. تلعن يوم النّحس الذي جمعَها به تحت سقفٍ واحدٍ. تعاود حمل جرابها. وتمضي مستحثّة المسير في اتجاه المسلك الفلاحيّ الفرعيّ قرب العين. طيفه المسخ يخرج من فزّاعة الحقل المجاور، يحملُ مِنجَلاً مُستَعراً ويركض خلفها ليقطف رأسها. شخيره في أذنيها مهما ابتعدت. وحي من ذكريات سوداء تجتاح عقلها، وتبتليها بالصداع. وعبراتٌ متحرِّقة تنزل منسابة على خدّين حزينين مرتجفين. تتبع تضاريس وجه هزيل، تجوبه أودية ما بين عظام بارزة. لقد أمست الحرمة هيكلاً ضارعاً على وشك الفناء. غلبها الزّمان. خذلها الحظّ وألقى بها في المحرقة حطَباً للنّيران. وزوج شرّير يُدخِّنُ ويتفرّج، أكل عمرها وتبرّز البقيّة الباقية في المجهول.

هناك، تنتظر الجرّار الذي ينقلها وخليلات البؤس، إلى ضيعة المستثمر الأجنبي روبرت، المالك الجديد، لجني الزيتون. يصعدن كلُّهنّ في المجرورة المتآكلة بالخلف. فوق بعض. كأنّهن حمولة بطاطا أو قطيع غنم للبيع في السّوق الأسبوعيّة. يسكب ابن العاهرة الماء البارد في المجرورة كل صباح. كذلك لا يجلسن ويبقين واقفات كي تتّسع المساحة لهنّ جميعاً. في بعض الأحيان يثقلن كاهل الجرّار الكسول. حتّى إنّه يضرب عن العمل. ينطفئ المحرِّك تلقائيّاً بعد محاولة انطلاق أولى. ممّا يفرض على السّائق الغضبان أن يترجّل ويفتح الغطاء ليرى ما بال أمّه لا يشتغل! بعد عديد المحاولات يتمكّن من إدارته من جديد. وينطلق بهنّ ببطء إلى جهنّم. في الطريق يتمايلن كالقصب في مهب الريح. يرقصن في كل الاتجاهات. سقطت طفلة قاصر ذات مرة لا تكاد تسلخ الثالثة عشرة من العمر. شجّ رأسها كالبطيخة وماتت ثمّ انتست.

هناك يعملن دون انقطاع من الليل إلى الليل كالخفافيش. كل امرأة تعتلي سلّماً وتتكفّل بتعرية زيتونة. تعرّيها تماماً. تزيل عن غصونها كلّ حبّات الزّيتون. وتلقي بها على البساط البلاستيكي المفروش عند الجذع. لا تُترك أيّة حبّة. في سبيل ذلك تدمى أصابعهنّ وتتورّم من الصّقيع والجروح التي يخلّفها الاشتباك مع الأغصان النّاتئة. أيُّ تخاذل يُنْقَبُ النّهار، ويخصم لهنّ الشّاف أجرة يوم مضنٍ. هنا تعمل أو غيرك ينتظر ليحلّ مكانك. في قساوة هذه الأيّام إمّا تكون ذا نفع ماديّ وإمّا يُرمى بك في حاوية القُمامة بتهمة نقص المردوديّة. هناك في تلك الضّيعة المنحوسة تشتغل وفمك مغلق بألف قفل وقفل. ليس من حقّك أي شيء شرعي. أن تختلي بنفسك فينة لتتبوّل أو تتغوّط. أن تتوقّف ربع دقيقة لكي تتنفّس. أن تدعك عينيك. أن تمسح العرق عن جبينك. أن تتوجّع. أن تشرب رشفة ماء من القارورة. والغياب يعني الطّرد. تُحرّم عليك أبسط حوائج العيش كإنسان، بما أنك تحوّلت إلى آلة ميكانيكيّة في سلسلة شغليّة مجنونة. دعه يعمل. دعه يمرّ. إلى العدم. ثمّ إلى العدم. فقط المزيد من الزيت. المزيد. لأنّ الكميّة لا تكفي. هي دائماً كذلك. مهما كانت وفيرة فهي دائماً لا تكفي أولئك الجَشعين منذ الأزل. إنّه الطّمع الفطريّ. وحبُّ المال.

أتحدّث عن مفهوم جديد للمرأة العاملة في الرّيف. المرأة البهيمة. المرأة الآلة. تُستغَّل إلى آخر يوم من مدّة الصّلوحيّة قبل أن تقطع تذكرة إلى مكبّ الزّبالة. كبسة زر أو ضربة سوط تدور. كبسة زر أو جذبة من الشّكيمة تتوقّف. عمل سرمديّ شاقّ. وروبرت ابن العاهرة يجني من عرقهنّ الأموال. وبالرّفش يُكَدّسها كنوزاً في الحسابات البنكيّة وشهائد رفع يد إلى قائمة ممتلكاته بالإدارة العقاريّة. وإنّه لَيَستثمر. كان في كل مرّة يغضب فيها يفتح النّار على جواريه ويُعيِّرهنّ بفقرهنّ: ”يا عاريات. يا جائعات. يا جاهلات. أنا من يطعمكنّ الخُبز. أنا من أَخرَجكُنّ من الفقر والبطالة. أنتنّ حثالة. أنتنّ لا شيء. أنا من صنع منكنّ نساءً مفيداتٍ في شيء ما غير مستودعات لقضبان الرّجال“.

تقضي فوزيّة يومها الحزين في جهنّم. ثمّ تعود في المساء إلى جهنّم أصغر منها حجماً. أثناء رحلة العودة، تنطوي على ركبتيها المزدانتين بالكدمات في آخر المجرورة الجربِاء على اليمين، وتهمس بينها وبين نفسها الشّقيّة: ”أريد

أن أرتاح. لم أرتحْ قطّ“. هزّة من المخمِّد البالي تلكزها أسفل الظّهر. تقول لها كفّي عن الثّرثرة والهراء ودعك من الأحلام. فهي ليست من حقّ البؤساء. تكفُّ مطيعةً على الفور. مغلوبة على أمرها كما هي دائماً. لكن اللّكز لا يَكُفّ. لأنّها كانت تجلس مباشرة فوق الدّولاب المثقوب. أو يبدو أنّه عقاب على حماقة الحُلم. وتعلق هناك بين همزٍ ولمْزٍ إلى أن تجد نفسها حذو العين من أين انطلقت في الفجر ورجعت بعد الغروب.

كم كانت الطريق إلى الجحيم قصيرة!

رغم أنّ الجرّار المُسنّ كان يمشي بوهن كأنّه سلحفاة. وأنّه سقط معطّباً في منتصف المسافة كما جرت به العادة. وغرق في الوحل حتّى صارت العجلات تغزل في مكانها. من يتوقّع أن جرّاراً مُخضرَماً ذا خبرة، كالجَدّ، قد يغرق في قليل من التّراب المبلّل. لقد صُمِّم أصلاً لتلك الظروف اللّعينة. لكنّه فعل. لقد تعمّد ذلك. أظنّه أخذ بخاطرها المكسور وبغى أن يُكسبها بعض الوقت. طريق العودة كانت حافلة بالحوادث. كلُّ ذلك قد وقَع. لكن مضى سريعاً. مرّ هكذا في لمح البصر. عندما يكون المرء سعيداً يتسارع قطار الزّمن بجنون فلا تحسّ به. يكون خفيف الظلّ. أخفّ من ريش الحَمام. تلك المرأة كانت سعيدة إلى درجة أنّها تذرّعت أن يبتلعهنّ الطّين وينزلق بهنّ الجرّار إلى جوف الأرض. هناك ينطمرن تحت التُّراب في سلام. ولا يجدهنّ أيّ مخلوق غير الدّيدان واليرقات القمّامة.

يمزِّق شرودها وشرودهنّ صوت جاف مألوف بغلظته ودمامته. المحطّة الأخيرة. ”هيا انزلن. هيا عجِّلن. وغداً لا تتأخّرن“. إنّه صوت السّائق البدين أبي كرش. يأمر وينهي ويصدر الأوامر. يكمل صبابة السيجارة الزهيدة بنفَس عميق وهو لا يزال يتوعّد المتأخِّرات. ثمّ يرمي برفاتها من شبّاك الكابينة. وحالاً يشعل سيجارة جديدة قبل الانطلاق، حتى إن اضطرّته شراهته في التدخين أن يفتح علبة عذراء. تقفز فوزيّة من المجرورة فيستقبلها الوحل فاتحاً ذراعيه وحبّات الرذاذ التي تبصقها الغيوم المُنخفضة في وجهها. تلفُّ على رقبتها الوشاح. تربط جيّداً المحارم. وتمضي مدبِرةً إلى حتفها. يعاود غزو خاطرها شبح الحلم بالرّاحة. تتذكّر كلّ شيء. تتهدّم. وتتبعثر روحها ماساتٍ صَغيرَةً من زجاج

مكسور. تضحك ساخرة من نفسها. تمرّ المآسي مندفعة أمام عينيها. مسلسل درامي كامل الحلقات. دراما صامتة بالأبيض والأسود. مع الذكريات تنفتح دفاتر الماضي. كلُّ صفحة مُغبرّة تقُصّ مأساة. وتقلب الصّفحات. ويتناثر الغُبار. تستيقظ الجراح القديمة ويتعالى سُعالها. حسّاسة لم تندمل. بقيت مفتوحة رغم مجهود الأيّام في تقطيبها. لا تزال تؤلم. لا تزال نديّةً تنزف. كأنّها جرحت الآن بالسكّين. لقد انقلبت إلى شروخ مزمنة غير قابلة للرّتق، استطابت المقام في لحمها الطّري. ذلك اللّحم الذي تفضّل نهشه جميع ضواري القرية. تتساءل باكية لماذا لم يكن للجرّار الشجاعة الكافية كي يضغط البنزين ويغوص بهنّ عميقاً في الطّين. لكان خلّصها من هذا العذاب. تتناسى طيبته وموقفه الرُّجولي منذ قليل. "جرّار جبان" تقول في سخط. تردفها برفسة غاضبة على بلاط المجرورة. يتكلّم المعدن الرّاقد من دهورٍ ويهمس لها: بنات حوّاء ناكرات للجميل. اذهبي إلى الجحيم.

لماذا يتآمر عليها الكل؟ أين تهرب منهم؟ أسئلة تائهة في دوائر مفرغة من حيرة. وما من مجيب.

آخر أمل كانت ترجوه أن تصل إلى رأس الهضبة، فتغمض جفونها ثم تفتحها، فتجد الكوخ التّعيس قد اختفى من على التّل. اقتلعته الرّيح من أساسه وطار بعيداً في السّماء. لم يعد له وجود.

لكنه رجاء عبثي. وَهم. فما إن فتحت رموشها حتى وجدت الخراب قابعاً في مكانه لم يبرحه. يرقص وتزغرد ألواحه القصديرية مع عصف الريّاح، لكنه ثابت هناك في انتظارها. تتملّك المرأة المنكسرة موجة إحباط. وتعبث هلوسة بعقلها. ترى كوخها وقد نبتت له أذرع طويلة مائجة كأذرع الأخطبوط. وتحوّل بابه إلى فم كبير كباب فرن. ونافذتاه إلى محاجر سوداء مخيفة بلا عيون. يناديها من بعيد ويضحك مُتعهِّراً بصوت مرتفع. كما يشير عليها بأن تقترب. سرعان ما تثب المرأة المنهكة إلى رشدها وتلعن إبليس. تذهب كل تلك الهلوسات إلى حال سبيلها. تمتعض. يتجهّم وجهها الشّاحب. تواصل مجبَرةً المسير حتّى تبلغ الباب. يتزايد الامتعاض. تضع المفتاح في القفل. تزيل السلسلة. تدفعه قليلاً. وتَلجُ أخيراً إلى جهنّم. فتجد زوج الهناء "الفالح" قد صحا

من ثملة ليلة أمس كالجنّ. وتأبّط شرّه. تصحّ دعوة الجرّار المظلوم عليها. إنّها الجحيم. كان ينتظر مجيئها على نار. لينتقم. وقد جهّز الحزام الجلديّ ومعه قضيب منتصب غليظ. تجوبه في كل الاتجاهات لوالب من العروق. ثعبان منتفخ.

يباغتها ويثب عليها من الباب. دون مُقدِّمات. ويطرحها على الصقالة. ثمّ يسحَلها إلى وسط الغرفة. من السّهل على حيوان مُفترس مثلِه أن يَفتكَ بطريدة ضعيفة متضعضعة كهذه. جاءت إليه تسعى على قدميها كالقربان. يخور البدن المنهوك مُسْتَسْلِماً من دون مقاومة. إنّ رصيده صفر من طاقة الحياة. يسقُط قبل الضربة القاتلة. بالكاد يستطيع أن يتخبّط ويقوم ببعض الصّكات اليائسة قبل الموت كما يفعل خروف مذبوح ومثبّت قرب ماسورة تصريف المياه. يتهاوى من دون أي وجع رأس. يا للوليمة!

يشرع الضّبع الجائع في نَهْش لحم فريسته وهي حيّة تعوي. يغرس أنيابه ومخالبه عميقاً في اللّحم كي يتأكّد أن الجثّة ثابتة. وتبدأ مراسم التعذيب.

يمزّق الضّبعُ كلّ خرقة بالية من ثياب زوجته. يتركها عارية. يهمّ بفرجها يمزّقه بعضوه المُتيبّس. كان يضاجعها بعنف ليرضي عطشه إلى الدّم. كان يضربها بقسوة. يصفعها. كانت تُهان. يرى في كلّ ذلك تجسيداً للهيمنة والسّلطة المُطلقة على ما ملكت يمينه. مفهوم الرّجولة عند جاهل مثله أن يُعذّب حرمته بشكل جيّد. أن يضربها ضرباً مبرّحاً فتصرخ وتتأوّه من فرط الوجع. كان يرجّها بمزرابه إلى الأمام والخلف. تأكل ما يأكل الطّبل يوم العيد. يأخذ الحمار حقّه الزّوجي كما يُحبّ. انتهت المضاجعة الحيوانيّة. تأخذ الأريكة البائسة نفساً عميقاً بين حياة وموت. كذا تفعل فوزيّة المسكينة قبل أن تعاود الجحيم فتح أبوابها في وجهها السّابح في المَنيِّ والبصاق، بين أرخبيل من الكدمات الحمراء والزّرقاء. سرعان ما يَكشف الوحشُ عن عصا أخرى أثخن من سليفتها. لا تعلم المرأة المنكوبة من أين يأتي بها ومتى أعدّها. ابن العاهرة. عصا زيتون مقشّرة صفراء مائلة إلى الخضرة. توقن البائسة أنّ اللّيلة ليلة الجمر. يناوشها بالسبّ.

– يا عاقر. يا ابنةَ الرّاعي. يا قليلة الأصل. يا عفن. يا خراء. تَمُنّين عليّ بعض القروش الوسخة لأنّي بطّال؟ تعيّرينني بالبطالة؟ قروش البغاء. على كلٍّ فأصلُكِ خارب. نعم خارب. يغلي بالسّوس والعَثّ. أنتِ تربية أرملة عاهرة سيرتُها على كلّ لسان.

– إن كنتُ كما قلتَ فطلِّقْني. ماذا تنتظر؟ وأمّي ميّتة يا...

– يا ماذا يا ابنةَ العاهرة. أمُّك عاهرة وأنتِ كذلك. أنتِ طالق. عليكِ اللّعنة.

وينهمك في تقتيلها وإبراحها بالضرب الشّرس لأنّها أبت أن تعطيه أجرة يوم شقاء في سعيرٍ ليسكر به ويقامر مع ندمائه. كان يضربها بِغلّ شديد. كأنّها عدوّة وليست زوجة. كأنّ بينهما ثأراً وتصفية حساب عالق. تعذيب وحشي. عنف متكرِّر. تُمسي وتصبح عليه. هو خبزها اليوميّ. روتين هذه العيشة الزوجيّة الهنيئة. تقاوم الضّعيفة بوهن ويأس. لكنّه يواصل جلدها بلا رحمة. كانت تُجلَدُ كما تُجْلَدُ الزّانيات. كان يعتلي ظهرها كالدّابة. لا تزال عارية تماماً كما خُلقت. لم يترك لها فرصة لتلتقط قطعة تستر بها نفسها أو تتّقي بها. كان يريد اللّحم مكشوفاً. لا يحول شيء بينه وبين السّوط. كي تكون الجَلْدَة مباشرة. ويكون وقعها على الجِلدِ أقوى. فتتألّم أكثر. ويتلذّذ أكثر. وبالفعل ما إن يلامس السّوطُ الجِلْدَ العاري حتى يترك خطّاً أحمر نازفاً. وتتكاثر الخطوط عشوائيّاً في جميع المناحي. فتتقاطع. وتتفجّرُ من نقاط التقاطع قطرات من الدّم السّاخن. عندما يتعب من الجَلدِ يرمي السّوط على جنَب. ويركّز في فترة الاستراحة تلك، على فَروتها. يصبُّ جامَ غضبه على الشّعر. كان يجذب الخُصَلَ بعنف حتّى يُقتَلَعَ الشّعر من الجذور، فتترك البُصيلات المقطوفة نُقَطاً حمراءَ صغيرةً كحبّات الكسكسيّ. يتناثر الشّعرُ المُقصّفُ على الأرض. فيما يتبقّى بعضه عالقاً بين أصابعه العرقانة. ويكمش باقَةً جديدة ملء كفَّيه. كانت فوزيّة تولول وتنوح بِلَوعة. تعوي كذئبة تتمخّض. وتستعطف زوجها. تستحلفه بكلّ شيء. بجاه الرّبّ ونبيِّه. برحمة أبيه. برأس أمّه. لكنّه لا يسمع. استولى عليه طيف الشرّ وتغلغل في داخله الغضب. نوبة هستيريّة عنيفة تملّكت روحه الشريرة. في ذلك الكوخ الملعون، كانت هناك قدرٌ كبيرة تغلي بمشاعر

النّقمة، يصلي فيها زوجته كالدجاجة. تتصاعد الفقاقيع وتتلاطم الحمم في القدر. وتتدور الدّجاجة وتتقلّب في الماء المغلي.

تمسي المرأة كالبهيمة على أربع قوائم. على يديها وعلى ركبتيها. الوبش يعتلي ظهرها يستريحُ ويدخّن. كان يجذب شعرها من الذَّيل. كانت رقبتها تُقْشَعُ إلى الوراء. يكاد يدقُّ عنقها. كان يحرص أن يكون الجذب خَشِناً كي تبقى أتانه مُنتَصبة ولا تَبْرَكَ به على الأرض. فقد كانت ضعفانة على وشك الانهيار. كان يَشهق بعمق من السيجارة. يمتصّ القطران على عرض رِئَتَيه. تتأجّجُ النّار في التّبغ. تصل الشّعلة الحمراء إلى مؤخّرة السيجارة. يخمدها في جلد الأتان ولسانها. وتَضوع رائحة الشِّواء في المكان. كأنّه عيد الأضحى. إنّ كلّ أيّام تلك المرأة السّعيدة أعياد. على مدار العام. زهور البنفسج والبُقَع الدائريّة المسودّة التي تزيِّنُ جلدها تذكارٌ يخلِّد تلك السّعادة في ألبوم الذكريات! مُلتاعة من حرارة النّار، تتبوّلُ المحروقة على نَفسِها. وترفَع يدها في ردّ فعل لا إراديّ لحماية نفسها وابعاد الشرّ عنها. تلك الحركة تستفزُّه. وتزيد من عصبيّته وجنونه. يصفعها بقوّة. فترتدّ في الاتّجاه المعاكس للصّفعة. يتضايق الفارس من ذاك الميلان المفاجئ، ممّا يدفعه إلى صفعها أو لكمها باليد المقابلة ليعيدها إلى الوضعية القديمة. تتأرجح إلى وضعيّة الركوب المريحة. تنزف المسكينة. الدّمُ ينهمر بغزارة من أنفها وفمها. تَلَطَّخ وجهها. وبات كوجه جاموسة مذبوحة حديثاً. يُلَطِّخ دمُها كذلك قبضةَ الجزّار. يلعن أباها مُتَقزِّفاً. ثمّ يترجّل. يمسح الدّم في ثيابها المُخرّقة. يبصق عليها. ويمسك السّوط مرّة ثانية. ويشرع في موجة جلد أعنف من سابقتها. جلد انتقاميّ. أكثر قوّة. في كلِّ شبرٍ من جسدها النّحيل. عندما تَهزُّ مرفقيها لتتحصّن تحتهما، كان يركِّزُ على المناطق المكشوفة. كانت تتمرّغ وتتلوّى أشبه بمحروق يتمرّغ في التُّراب ليخمد اللهيب الذي شبّ في ثيابه. يُكمِلُ الجلد. تظلّ تتصرّعُ كحيّة نحيفة سُحق رأسها تحت لطخة رفش غاضب. تتواصل طقوس التّعذيب ما يتطلّبه الأمر حتّى تستسلم.

لم تعد المرأة تتحمّل الضرب. تخور وترمي المنديل الأبيض وفوقه عرقها ودمها وورقة نقديّة ملوّثة بالدموع والمهانة، تعبت طول النّهار لتعود بها. عندها

بَسْ تَكُفُّ فرقعة السّوط. يُعيد الحزام إلى نصفه. يتقهقر وهو يلهث ويقول: ”وفّري عليّ وعليك العناء. لم تفهمي الدّرس بعد“. تتمتم الحرمة. تهذي. لم تعد قادرة على النّطق بعد أن انتفخ لسانها الذي انقلب إلى مرمدة. كانت شبه ميِّتة. تلتصق بالبلاط. يشفق عليها هو وكلُّ جماد في الكوخ. يحضنها البرد. تستطيب لذاعته لأنّها تخفّف وطأة الوجع. كابدت الويل. لقد هشّم عظامها ذلك الوحش. كأنّ شاحنة ثقيلة دهستها. لم تعد قادرة على الحركة. كان التعذيب احترافيّاً في مستوى البشاعة المنشودة وفي مستوى سمعة الجلاد. يأخذ النذل أتعاب الجلد زائد حبّة مسك. يلبس بدلته ”الدنقري“ ومعطفه النّيلون القبيح لأنّ الطّقس ينبئ بالمطر. يرشّ من قنينة العطر الرّخيص. يتركها عارية مسجّاةً على الصّقالة غارقة في بركة من الدّماء. يودِّعها بأن يرمي عليها بَصقةً ويمين طلاقٍ في بعض الأحيان. ويخرج متوجّهاً إلى الحانة بعد أن أوصى بأن تترك له نصيبه من العشاء.

يخفِّق البومُ العجوز بجناحيه ويفارق مهجعه من على مِدخنة الكوخ وقد ازداد نعيبه حُزناً غير مصدّق. وانكبتاه عليكِ. هذا الشّيطان. لقد كان يتلصّصُ ويتابع كلّ فصول المأساة عبر نقبة من نُقَب الزِّنك على السّطح.

2

البغلة حبلى

نزل الخبر كالصّاعقة على رؤوس أهل تلك القرية البائسة. لم يصدّق أيّ أحد منهم أن العاقر حبلى. وستنجب أخيراً. فقد فاتها القطار من زمان ولم تخلِّف. كان حملُها في مثل سنّها اليائسة معجزةً، فهي تكاد نصف قرن.

كانت كلّ نساء القرية – الحائضات منهنّ واليائسات – مستغرباتٍ من حبلها العجيب والمذهل. ولئن كانت فكرة الحمل في حدِّ ذاتها غريبة، فإنّ الحمل بذكر كان يبدو أغرب. لقد كنّ يجزمن أنّ جنس الجنين ذكر. العلامات واضحة. ما من لبس. وهو ما جاء على لسان قابلة القرية التي أكّدت بداهة المسألة وبساطتها. إنّه ولد لعين. نقطة على السّطر:

– تمعّن في نحول المجاعات هذا. باتت المسكينة كشمعة ذائبة. من ذا الذي يأكل عمر أمِّه، ويتركها جلداً على عظم، غير ولد، وولد عاق!

أي أنّ الخبر صحيح. وكلّ ما قيل بخصوص جنس المولود مؤكّد. فوزيّة العاقر، العُريانة، ابنة الرّاعي ستُرزَق بذكر في الخمسين. سخرية القدر. كانت هذه الجملة الفاتنة تدور بين أفواه النّساء الأصغر منها، واللاتي لم ينجبن أو أنجبن إناثاً. يحقدن عليها ويتمنّين لو تجهض أو يموت في بطنها الصبيُّ. عندها يرتحل عنهنّ هاجس التفكير في الملعونة وسيرة الملعونة. لقد كانت كل تلك المشاعر البشعة تختبئ وراء أقنعة بشريّة مصطنعة تستر وجوه مسوخ أبشع. كنّ ينافقن. ويخفين غيرتهنّ وذلك الحسد المرضيّ في وشاح بسمات صفراء مكفهرّة، يشوبها التلفيق والكثير من الزيف. كانت فوزية بنصف مخ. بلهاء. بسيطة الفكر ككل امرأة ريفيّة جاهلة. بحيث كانت تصدِّق تلك الفرحة المفبركة وكل ما يحفُّها من تطبيل وتزمير وقرع للدفّ. في ظنّ المسكينة، أنّ جاراتها الطّيبات قد جئن يهنّئنها ويدعون لها بالسلامة وخلاص الوحل. لكنّها كانت واهمة، فقد جئن يهتكن عرضها وينتفن ريشها بالمجّان. كانت الإشاعات

لا تنفكَّ تتزايد كلّ يوم. إنّه كيدهنّ. وقد كان جلّها يطعن في شرعيّة الجنين ويتّهمها بالفاحشة والمجون.

أنّى لها بولد وقد هجرها زوجُها تقريباً منذ عام؟ من أين جاء وهو ليس رجلاً؟ رجلُها كهْدلٌ معوّق. ذلك الأشيب النحيل والأضراس المتداعية.

كانت النظريّات الحمقاء مطوّعة على المقاس، لتلبسها الحبلى التّعيسة وتغلق شدقها. كانت تصبُّ في نفس الوادي. هي زانية وابنها نغل، فرخ حرام. شيئاً فشيئاً انتشرت الفتنة وتفشّت كوباء الطّاعون. أضحت الشائعة حقيقةً قطعيّةً لا تقبل الجدال أو الطّعن. على الرّغم من أنّها مبنيّة على مجرّد كلام فارغ، اخترعته نسوة أميّات كلُّ ما يجدنه هو سكب الزّيت على النّار والقدح في أيّ شيء قابل للتأويل. كانت الأخبار وكل ذلك القيل والقال مجرّد أكاذيب لا تدخل في الرأس. إلّا أنّ كيدهنّ قد فعل مفعوله، وحطّم ما تبقّى من أنقاض قلب تلك المرأة المنكوبة.

لم يقعد لها سوى النّفي والبيّنة والصبر على ما أصابها. لا تدري التعيسة من أين تتساقط على قحفها المصائب، وهي مُقدِمة على مخاض عسير تنبئ به صكات الجرو المسعور في بطنها. المشكلة أن كلّ ما قيل فيها وفي شرفها كذب وتبلٍّ. لكن القوم يصدّقون السّفيه ويكذِّبون الصادق في أيّامنا.

كانت فوزية تبول في الرّمل. تتظلّم وتنفي ما ألصق بها من رذيلة، لكن ما من أحد يصدّق أو يصغي أصلاً. الكلّ يتّهمها.

صحيح أن السّافل زوجها، قد سرق كباش الجار، وهرب تاركاً إياها وراءه. إلّا أنّ ذلك منذ بضعة أشهر تُعدّ على أصابع اليد. خمسة كحدٍّ أقصى. وكما نرى فإن تلك الـ"تقريباً" التي تفوّهت بها عدة نساءٍ منهنّ، تزن سبعة أشهر كاملة بأيّامها ولياليها، أضيفت من عدم إلى عمر حملها كي تُحلّ المعادلة وتثبت عليها التّهمة. صحيح أن ابن العاهرة قد سقط من على البغل ورُفسَ تحت حذواته، لكن ذلك لم يحوّله إلى بغل عقيم. وليست صحّته بهذا السّوء. ليصبح كومة خردة معوّقة منتهاة الصّلوحيّة. في حين أنّه نجا من ذاك الحادث في الجبل بأخف الأضرار كالكلب. زيادة عليه، فإن زوجته تؤكّد أن العقم منها. بحكم عامل السنّ. هكذا قالت لها طبيبة الحزامات في المستوصف.

لقد دأبت الطبيبة على زيارة القرية بصفة دوريّة. تدور بسيّاراتها رباعية الدّفع على كل تلكم الأكواخ المشتّتة. تتفقّد النوازل التي تسكنها وأحوال البرنامج المبتئس. برنامج التنظيم العائلي وتحديد النّسل وما أدراك...

في زيارتها الخاطفة، كانت المرأة المؤقّتة الوحيدة بين ذلك الكمّ المهول من النّعاج في القرية. ولقد كان مشهدها وهي تقود شاحنتها قويّاً على قلوبهم وقلوبهنّ.

أين وصل البرنامج؟

سؤال إنكاري، لأنّ الجواب كان معروفاً سلفاً. إلى نقطة الصفر. دخل مباشرة في الحائط. نعم. بطبيعة الحال. تقول الدكتورة وهي تضرب كفّها على جبينها غير مصدّقة. كان ذلك البرنامج معنى كلمة فاشل. لا شكّ أن من خطّط له بلا دماغ. إنّ أهل القرية صمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ. الكلام يدخل من أذن، فيخرج من الأخرى. وهم لا ينتصحون. كما أن أولئك الملاعين لديهم قضبان حمير وليس قضبان بشر. لا تشبعها أنثى حتّى أتان. هم في تصحُّر جنسيّ مستدام. يعانون من الجفاف. من عطش مزمن للجنس. هناك في القرية، إنجاب الأطفال وتشتيل النّسل هواية. يصرف بها الرجال وقت الفراغ ويطيّرون بها ضجر البطالة. هم عاطلون من العمل على مدار العام باستثناء موسم جني الزيتون وموسم جمع الفلفل والطماطم. وحتى في تينك الموسمين فإن الغالبيّة الشغّيلة هي من النّساء. الرّيفيّات كادحات. يشتغلن ويعرقن على لقمة العيش الصعبة. الظروف قاسية بالفعل في الأرياف الفقيرة. أمّا الرجال في المقابل فقابعون في الحوانيت، يحتسون الشّاي مع ما تيسّر من التّبغ ويلعبون الورق.

"الفالح" بعل فوزية – التعيسة ببعلها – واحدٌ من هؤلاء السِّباع. النذل حكايته حكاية.

كان ابنُ الكلبة اسماً على مسمّى، فالحاً في كلّ شيء ما عدا أن يكون نافعاً في غرض مفيد. كان سكّيرا. قبيح الخُلُق والخِلْقة ومشين القول والفعل. لقد كان منبوذاً من لدن أهل القرية. مصيبته في اثنتين. لسانه وأصابعه. كان ذلك اللّسان رطباً من كثرة السبّ وكُفر الجلالة. كان في صحوه وفي سكره يهتاج على أتفه سبب. وقد كان في هيجانه لا يتردّد في سبّ الربّ والأنبياء جميعاً

على بكرة أبيهم آدم. قبّح الله وجهه. أما أصابعُه فكانت كأصابع لاعب الخفّة. رشيقة وسلسة في التسلّل إلى جيوب الضحايا. من نوادره أنّه في أحد أيّام الجمعة، كان القلّة القليلة من الرجال الأتقياء مصطفيّن وراء الإمام، في ركن قريب من مزار الولي الصالح، يؤدّون الفريضة. كان ذلك الرّكن المنعزل المكان الوحيد الذي تتيسّر فيه عبادة الصّلاة، لخلوّه من اللغو واللّغط والأقدام. كان القوم في خشوع، ساجدين يدعون، عندما سمع إبليس التكبير والاستغفار.

كان "الفالح" قد زار الوليّ عدّة مرّات، بحيث عرف توّاً أن التكبير يأتي من الباحة الخلفيّة. لم تكن للزيارات المتواترة أيّة علاقة بالمعتقدات الدّينيّة التي تقول بها كطقس، يُتَقرّب به إلى الخالق ويُتَبَرّك به. إنّما كان اللّعين يمرّ من حين إلى حين ليأكل من القرابين المذبوحة ويسرق من المعطى. في ذلك اليوم المقدّس، كان الزّائر الكريم قد أفرغ في جوفه كرتونة بيرة وبعض الفواضل من علب ندمائه، بحيث سَهُلَ عليه أمر الطّواف في دوخته، فغدا التابوت يدور به دون أن يبرح هو مكانه. ثم تغلغل في قلب المقام باحثاً عن الباب الخلفي. كان الحاجب حائراً. لا يدري ماذا يفعل مع تلك البليّة صاحبة المشاكل. كانت صحيفته المُسودة تسبقه أينما قبّل. بائع مصائب متجوِّل. كان الحاجب المسكين في مأزق بين نارين: يخاف أن يطرده فيقلبها على رأسه ويشعل النّار. أو يتركه لحال سبيله فيدنّس المكان بأن يتقيّأ أو يتبرّز ككلّ مثمول. ماهو إلّا ردح زمان حتّى حملته كراعاه إلى كبد المُصلّى، يتجوّل ولا يفهم شيئاً ممّا يفعلون. لم يكن وجه عبادة. فقهه كان يقتصر على بعض الحركات البسيطة يرتجلها متى احتاج إلى ذلك. وتمتمة منغَّمة يقلِّد بها ما يُقال أثناء الرّكوع والسّجود أو الرّفع من كليهما. كانت حياته بهائميّة ساذجة. تقتصر على جملة من وظائف حيويّة، كالأكل والشّرب والخراء والنّوم والجنس. يقضي يومه في الحانة. فإن لم يكن هناك، فإنّك لتجده عادةً في المقهى. فإن لم يكن هناك، فلا بدّ أنّه يقتات من جيوب الخلق ومتاعهم ليؤمِّن مصروف ثملة الغد. يومها كانت الصّلاة في مطلعها. في الأوّل وقف في آخر الصف. ثم لم يعجبه الأمر. فقرّر تغيير المكان ربّما لسدّ خلل. شقّ الصّفوف كلّها وهو يهذي

بكلام طلاسميّ متلعثم. ثم استقرّ خلف الإمام مباشرة، في صف صنعه على شرف نفسه وكفى. كان القوم يهجون في قلوبهم هذه المصادفة الغريبة ويستعوذون من الشّيطان الرجيم. كل ذلك كان يحدث في صمت متأجّج، مخافة من اللغو وفساد الجمعة. كان شعوراً مقيتاً أن ترى جثّة متحرّكة تضوع كحولاً، تتفسّح في مُصلّى مقدّس. ثم بدأ الشّغب... التصق بالإمام الذي بدا عليه الارتباك واستحوذت على صوته نبرةُ الغضب. من هناك تواترت الأخطاء حتّى في قصار السّور. كان السكّير الرّاقص لا ينفكُّ يتمايل ويضايق خشوع الشّيخ. الأمر يتجاوزه لأنّه بالكاد كان يقوى أن يستقيم بعد سجدتين ورأسٍ بخمار. كان كلُّ تأرجح يمخضُ البلاوي في معدته أكثر. فيتجَشّأ. وتفوح الرائحة. كان الإمام يتجاهل أمره. ويحسبه معتوهاً من معاتيه كُثُر. لا يؤاخَذون بعتاهتهم والقلم عليهم مرفوع. كان أيضاً يبالغ في صفحه وسعة صدره، في حين أنّ كلّ البوادر كانت تشير إلى كارثة.

قد حلّ التشهُّد الأخير ما قبل السّلام، وها قد راب جيّداً عصير القرف في معدته. كان الشّيخ المسكين يتأهّب كي يُطلِق السّلام ويستريح من ذلك البدن الهامد الذي أهلك ظهره. إلّا أن إبليسَ قد تبوّل على نفسه وتقيّأ على جُبّته وفي كل مكان.

وانكبتاه على القُدسيّة!

كانت القطرة التي أفاضت الكأس. لم يكمل الإمام آخر فريضة في الصّلاة. نهض ثائراً يلعن فرج جدّته الأولى، دافعاً العزاء بعيداً عنه. خلع جبّته أمام الجمع المشدوه وبقي في سرواله العربيّ الفضفاض. ثمّ انهال عليه ببُلغته في كلّ مكان يشفي الغليل. ومنذ تلك الواقعة لم يُرْفَع أذانٌ ولم تُقم صلاةٌ أخرى في تلك الحفرة قليلة الدّين.

3

مخاض على موسيقا المطر

كانت ليلة شتويّة قارصة كأخواتها من ليالي شتاء الشّمال. وقد كانت تمطر بغزارة. كلُّ أهل القرية في سُبات عميق في تلك الجحور الدّافينة تحت الثّرى المبلّلة. الماشية فزعة متراصّة في الزرائب. تنام وعيونها مُفَتّحَةٌ تشعُّ بخُضرة متوهِّجة فاقعةٍ في العَتَمة. كانت السّماء ثقلى بالغيوم الملبّدة. دُخانيّة كئيبة تذرف عبرات مسودّة ملوّثة بالحُزن. القصف متواصل منذ ساعات والرّعد يقرع طبوله. إنّها الحرب. عاصفة هوجاء تَغيرُ على القرية الملعونة. لقد صدقت نبوءة تلك العجوز العمياء. صحّ كل ما أنذرت به من شُؤم مكفّن في رُؤى سوداء مُظلِمة. ها هي الحمير المُرْتعشة هَلِعةً تنهق. الكلاب تعوي. الريّاح تُصفِّر في قرون الجحيم بين الجبال. عزفت جوقة من أصوات نشاز. صدى قرقعة الصّواعق يتردّدُ في فَراغ الموحش سيأكل الجميع. كان دويُّ الانفجارات مهولاً. كانت القرية مكفّنة في جلباب داكن تنساب على سواده خصلات بيضٌ من لُبدة الضّباب، يمزّقه من حين إلى حين وميض برق خاطف يُبدِّد قتامة المآتم تلك. رُسِمت لوحةٌ حزينة من الحبر الصّيني، بألوان غدافيّة كريش الغربان. لوحة الحِداد. وأُلبِسَت القرية ثوب العزاء. إنّها تحتضر وقد أصبح موتها وشيكاً، غريقة في الزّلق والوحل الزّاحف.

كان الوادي الكبير ينهل من ماء المطر المُتَهاطل. لم يكن بطنه يكتفي بما شرب بل كان جشعاً يطلب المزيد. كان موجه الطّينيُّ يتدافع مُبشِّراً بالطُّوفان. لقد ارتفع منسوبُ المياه بشكل كبير إلى أن حُفر جبٌّ سحيق على يمين وشمال الوادي. قُطعت الطّريق إلى العمران. باتت القرية اليائسة معزولة وراء العاصفة ترقب أجلها في صمتٍ متوجِّس.

الحبلى في كوخها المتداعي. تصطرعُ مع ألم المخاض. وتدعو في نجواها أن أفرِجْها يا مفرِّج الكُرَب. كانت القابلة العجوز متقرفصة على جِلد وبريّ قديم

بجانبها. تدثّرها وتحاول أن تصرف عنها الأوجاع بأن تلهيها بالحديث. طنجرة الماء تَسخن من زمان على موقد الحطب. لكنّها لم تَسخن بعد. كان الحطب مُبتلّاً. لقد كان زِنْكُ السّقف مطرّزاً بالشّقوق والثُّقب. بحيث كان يَقطر مباشرة في كيس الحطب. لقد أكلت السّطحَ الفئرانُ. القابلةُ تسبُّ وتكيلُ الشّتائم. نظرت هنا وهناك تتجوّل ببصرها في وسط الغرفة المظلمة عساها تجد غرضاً يلبّي حاجتها. لم تجد شيئاً غيرَ معالم البُؤس. اللّعنة على الفقر الذي تبوّل علينا. كرسيٌّ خشبيٌّ بالٍ يقبع وحيداً في ركن ينخره السّوس. قنديلٌ هرِمٌ في وسط الحجرة. نوره ضعيف. الزّيت يكاد يَنْضب. شيئاً فشيئاً اختفى ذلك الضّوء الخافت وغَرِقت الحجرة في الظُّلمة. كانت الدّاية تنفخُ على الموقد حتّى تنتابها نوبة سُعال وتذرّ عليه القشّ وكلّ ما يمكن أن يُؤجّج اللهيب الميِّتَ قبل أن يتحوّل إلى رماد. عندما قطعت منه الأمل، اكتفت بالتّعويل على غمزات البرق لتكشف على الحُبلى وترى أين وصل المخاض. ذلك الرأس الكبير عالقٌ في حفرته لا يريد أن يتحرّك. كانت العجوز السّبعينية تشدّ من أزر المسكينة وترشّ على رحمها الماء الدّافئ. هوّني عليك يا ابنتاه. تنفّسي بعمق. تنفّسي وادفعي بأكثر قوّة. ادفعي بجلَد. لقد قرب الخلاص. ازداد توتُّر القابلة. إنّها لتعلم جيّداً أنّ الطفل سمين وأنّه أكبر من حوض أمّه التي تحتضر في وضعه من المغرب.

كانت فوزيّة مريضة بداء السّكّري. هكذا قالت لها الطّبيبة. وعليه، فإنّها مُرغَمة على اتّباع حمية غذائيّة متوازنة تعدِّل نسبَة السّكّر في الدّم وتحميها هي وفصيلها من المخاطر التي ممكن أن تنتج عن المرض. السّكّر في الحمل ليس لعبة. أضافت الطبيبة بحزم وقد كانت تعني ذلك وهي تَسردُ عليها لائحة طويلة عريضة من الأطعمة المحضورة. هذا ينفع وهذا يَضرّ. عندما زفّت لها الخبر لم تفقه المرأة الجاهلة شيئاً منه. لم يعلق في جمجمتها الجوفاء سوى الحِمْيَة التي ستكون حتْماً مُكْلِفة. تنهّدت المرأة فقيرةُ الحال وهي تُغلق من ورائها باب مكتب الطّبيبة في المستوصف. ثمّ ما فتئت أن انفجرت تضحك ضحكات خَبلٍ ضائعة في حقل شرودٍ فسيح. كانت تسخَر وتؤرجِحُ رأسها من الهديّة الجميلة التي جادَت بها الأقدار عليها. البؤسُ يلاحقها أينما شبّت. سرعان ما انقلبت الضحكات المجانين تلك إلى بسَمات مكفَهرّة. ومن ثَمّ إلى

دموعٍ. من أين يا حسرة؟ أمطرت السّماء على دماغها بنقاط الاستفهام. العينُ بصيرة واليدُ قصيرة. الحرمة فقيرة مُعوزة تعاني من الفاقة. لا تقدر على الدّواء وعلى غذاء كهذا في فقرها المُدقع. كان كلام الطّبيبة يتكرّرُ في ذاكرتها كأنّه مذياع. كُلُّ ما منعته عليها هو معاشها والمقدور عليه. تأكله كلّ يوم لأنّه رخيص. أمّا تلك الأغذية النّافعة فنادراً ما تأكلها في عيد، في مأتم، في "زَردة"[8] أو في عُرسٍ من الأعراس.

8 مأدبة تقام تبرّكاً بالأولياء الصالحين.

ضربت الحبلى بقائمة الطّبيبة عرض البحر وواصلت في حميتها الغذائيّة الخاصّة. لذلك فطوال فترة الحمل كان سُكّرها مرتفعاً وبدنها منهاراً. وقد كان جنينها يُقبل بنهمٍ على دمها الحلو ويكتنز كلّ ذلك السّكّر الزائد عن الحاجة شحماً في بدنه. وهو ما جعله يتضخّم داخل رحم أمّه الضّارعة.

إنّه لا يتزحزح من حفرته. القابلة حائرة لا تدري ماذا تعمل في هذه المصيبة. مثلُ هذه الولادات لا تُفلح معها الطّرائقُ التّقليديّة القديمة. ولا يمكن أن تنجح في كوخ قِفارٍ ومعزولٍ التهمته الظُّلمة. والمرأة ليست وجه مُعجزتين متتاليتين. لم تكن العجوزُ المُرتعشة قادرة على فعل شيء سوى الصّلاة ومواصلة تَطبيبها بما يقع بين يديها المرتجفتين. كانت ظُروفاً عاهرة.

كانت المرأة الحامل أتعس حبلى قد تراها العين: يتيمة، مُعلّقة، لا هي متزوّجة ولا هي مُطلّقة، ومقطوعة من شَجَرة، لا يكلّمها أحدٌ من أهل القَرية بما أنّها آثِمةٌ وتستحقُّ العقاب ككلّ زانية. لقد فقدت أباها الذي فارق تراب الدّنيا بأبشع المنايا. مات على حماره محروقاً بصاعقة في غابة. عندما وُجِدَت جثّته بين الأشجار الحفيفة كانت مُتَفحّمةً ومنهوشة إلى الهيكل وقد ظلّت قبضته متصلِّبةً على حبل الشّكيمة. كانت ابنته الوحيدة هي أوّل من وجد بقايا جيفة أبيها الفقير بعد أن بقرتها الضّباع إلى العظم. لقد تعرّفت عليه من خلال مفتاح مخزن الفحم الذي بقي يتدلّى في رقبته. قصدَ أدغال الغابة بُغيةَ أن يسترزق من عبابيد الصّنوبر الحلبي ويجمع حزمة حطب. كانت صدمةً مروّعة حفرت خنادق في فؤادها المحروث بِطبْعه من الأسى. بعد ما يقارب العام

التحقت به أمُّها متأثِّرةً بكلومها وأحزانها عليه. منذ وفاته بَكمتْ ودخلت في حداد طويل. استمرّ جسدها في الهزال حتى استولى عليه داءُ السّلّ وسَحلها إلى المقبرة في أيّامٍ قليلة.

دفنت فوزيّة والديها بيديها في القبر الآجريّ القبيح نفسه. في حَوْشِهما أين عاشا معاً قليلاً من السّراء وكثيراً من الضّرّاء. لم تكد البائسة تقف على قدميها مترنّحة من الممات بعد أن أطلقت عليها الأيّام من بندقيّتها خرطوشَتين في المقتل، أجهزت اللّعينَةُ على رأسها برصاصة بين العينين فهجرها زوجها النّذلُ، ومن جرّائه كلُّ أهل القرية، وغرّب إلى المجهول بعد أن زرع في بطانة رحمها بذرةً من صلبه. لا أحد يعلم أين قبّل. الإشاعات هي كما هي. كثيرة.

أصبحت سيرة المرأة المنكوبة على كلّ لسان من تلك الألسنة الحقيرة. بعضهم يقول إنّ زوجها قد ضبطها بالفاحشة وهي تعهر مع رجل، ممّا دفعهما إلى قتله. وإنّ ذلك النّغل يكون ابنه. بعضهم الآخر يقول إنّه في السّجن بتهمة السّرقة. غيرهم يجزم أنّه قد تجاوز الحدود خلسة وأبحر تحت أجنحة الليل إلى جزيرة لامبادوزا الإيطاليّة خوفاً من أن يقع في قبضة الشّرطة. قصّاصون آخرون ينفون قَطعاً مغادرته تراب البلد. أناسٌ أُخَّر يميلون إلى الاعتقاد بأنّ رواية "الحرقة"[9] صحيحة مئة في المئة لكنّ الزّورق البالي قد غرق بكلّ من على ظهره في قاع البحر، وإلخ من الهُراء.

9 هجرة المراكب غير الشّرعيّة.

كانت المرأةُ المعسِرة تعوي كما تعوي ذئاب الجبل ليلةَ يكتملُ البدر. عُروق كالحبال شقّت طريقها إلى جبينها الذي كان يتصبّب عرقاً. كانت تكافح الوجع. وتطبق فكّيها على بعض بوجع. أسنانها تصطكُّ وأصبح صوت تصادمها مثل قرقعة قوارير زجاجيّة تتناطح في ما بينها. كانت تَرجف من كلّ ذلك العرَق البارد الذي تستحمُّ به منذُ ساعاتٍ في قلب شتاءٍ عاصف. نبضُها سريعٌ وها هو يتسارعُ بجنون. كانت عيناها جاحظتين كأنّها تُجهض روحها من حدقتيها. صرخةُ ألم شديد تهزّ كوخ الفزع ذاك وتُقعدُه وتمزِّق ظُلمته الحالكة. كانت المرأة المُتمخِّضة تزهق آخر نفسٍ قبل أن تُفارق وتجاور ربّها. كانت الحُرمة خِرقة

قماش بالية مفروشَةً على أريكة خشبيّة بالية أكثر منها. لا تتحرّك. مرخيّة وجافّة كورقة من أوراق الخريف. لقد انفلَقت المَشيمة. وفاضت السّوائل في الظّلام. نَزفت المِسْكينَةُ دماً وعرقاً وماءً وأمصالاً ولم تهتدِ الدّاية العجوز، لضُعف بصرها ولدُجنَة تلك اللّيلة السّوداء.

استمرّ كفاحها المُضني يوماً وليلة شتويّة طَويلين. تتمرّغ الحامل على فراش الموت. العجوز بين نومٍ ويقظة على جلد الشّاة هناك بقربها. لقد أعياها تَعَبُ السّهَر. تدفع بيأس وتصرُخ. تَعضّ على الغطاء الرثّ وتدفع. تضرب بكفِّها على الجدار الطّينيّ وتدفع. تدعو وتدفع وتصرخ إلى انزلق ذلك الرّأسُ الصّخريُّ الضّخم من مأزِقه وتَبِعَه البَدن. بكى المولود بكاءً مُرتعشاً متقطّعا ثم ما لبث أن صَمت صمتاً مفزعاً. استفاقت العجوز القنوط من غفوَتِها وصاحت: "ياه! كم أنتَ كريم يا ربّ. الحمدُ لك حمداً كثيراً. مبروكٌ عليك الخلاص يا ابنتي سَعديّة. آآآآآآه. فوزيّة، فوزيّة". ثمّ وثَبت على الطِّفل الرّضيع كالمجنونة، تتحسّسُه على وميض البرق الفرحان الذي تواتر على زيارة الغرفة المحزونة، يرمي أن يشيع فيها حُزمة من الضّوء. لعلّه يجبُر بخاطر ابنة التّعاسة تلك، ويضمِّد كسورها وجِراحها، ويواسيها ببصيص من النور.

أخذت القابلةُ الرّضيع الأزرق بين ذراعيها. كان يختنق وبالكاد يتنفّس. قلبتهُ رأساً على عقب. وأشبَعتهُ صفعاً على ظهره وعلى مؤخّرته الهُلاميّة الحمراء. ماهي إلّا فينةُ زمان حتّى خلّصَت قُصيْباته الهوائيّة من البلاوي التي أغرقتها في تلك المجارير. اندفع فيها الهواء البارد. كان صقيعه كافياً كي يجعله ينفجر بُكاءً ويُعلن عن عودته من مكانٍ قصيّ خلف تلال الحياة.

"ابكِ أيُّها النّزق. ازأر في وجه الدّنيا كي تخاف العاهرة من أنيابك". هكذا قالت الأمُّ العَجوز وهي تهمُّ بحبل السرّة تقطعه بالمشرط.

4

هديّة الميلاد

فرغت الدّاية من تنظيف الفتى الصّغير وتَطبيبِ سرّتهِ وبُنيّتِه بالمُطهِّر. كانت تلك الحقيبة الجلديّة بجانبها مُزدحمة بالقناني البلّوريّة الصّغيرة. عنقُ كلّ واحِدةٍ منها مَحشُوٌّ بفلّينة. وكلُّ قنّينة تحتوي على محلول بلونٍ مُختَلِف ويَصلح لشيءٍ معيّن دون سواه. لقد تَعلّمت الحاجة سالمة الكثير من مُخالطَة المُمرّضات المسيحيّات عندما كانت شابّةً تشتغل عاملةَ تنظيف في قسم التّوليد بالمستشفى في حِقبة الاستعمار. هناك تَعلّمت مبادئ التّوليد وأسرار المُداواة بالأعشاب. هناك أيضاً حَفِظت أبجديّات اللّغة الفرنسيّة وبَعض المُفردات الإيطاليّة ممّا خوّلَ لها وقتها التعامل مع الأجانب.

لم يترك الفقر مجالاً للحامل أن تُعِدّ العدّة ليوم الميلاد. كانت أدراج الخزانة مُغبرّةً خاوية ينام فيها البؤس. لم تجد العجوز ما تُلبس الفتى سوى حُلّة البنات الزّهريّة تلك. كانت قد خاطتها بيَديْها لتَفرح بحَفيدتها آنذاك. لكن لم ترَها منذ عشرين عاماً. هي تَعلم جيّداً أنّ الحُلّة لن تُناسبها بالتّأكيد، فقد صارت صبيّة. لكن رغم ذلك فقد كانت تحتفظ بها طوال هذه السّنين عسى أن يأتي يَوم وتراها قبل أن تزلّ بها السّاق. عندها تريها حُلّتها الصّوفيّة، فتبَتسم لها في خجل حتّى تتوَرّد خدودها وتحضنها ويُنسى ما مضى.

لقد كانت تَرقبُ عودتها وابنها من بلاد "برّه" في شَوق مُتّقد. كلّ يوم قبل الغروب، كانت تَصعد إلى أعلى الرّبوة وتجلسُ هناك على صَخرةٍ كِلسيّة بيضاء، تجثو خالدةً بين جذعي شجرتي العَرعار المُعمِّرتين وأغصانهما المُتشابكة. تَجلس شاردة الذّهن في عَرش الخُلود ذاك وتطرق في تأمُّل الأفق. كانت تراقب مُنعرجات الطّريق التي تتفجّر مُلتويَةً ما بين الجبال كأفعى عظيمة تعصر الهضاب. هناك كانت تنتظر الحافلة في صمت. يَخفق قلبها

المُسنّ عندما يُطلّ ضوء مصابيحها ويُشعّ في رأس الجَبل. تُراه يأتي اليوم؟ تُعاود طرح السّؤال ذاته الذي تَلوكه سُدىً كلّ يوم. تظلّ تُشيّع الضّوء من القمّة نُزولاً إلى السّفح وهو يظهر تارةً ويضيع طَوراً في ثنايا تلك الطريق الجبليّة الحلزونيّة، كأنّه يلعبُ معها لعبة الغمّيضة. بعد زمن تَخرُج من بين الأهرام. يقتربُ الضّوء ومعه أزيز المُحرِّك. تتسارع دقّات القَلب. تُخفِّفُ المركبَة من السّرعة في هذا المنحدَر الحادّ وقد خرجت قليلاً عن الأسفلت. علَت سحابة خفيفة من الغُبار وتطايرت الحصى على حافّة الطّريق. هل ستتوقّف لتُنزل أحدهم؟ أيكون هو قادماً للتّو من تونس العاصمة؟

تقف العجوز تبتلع ريقها هناك على الرّبوة. تنتصِب وتتجمّد كصَنمٍ قديم. تُراها تفعَلها وتقف في محطّة الشّوق؟

وكأنّ المركبة قد استمعت إلى حوار السّرائر. ما إن يستوي المُعبّد حتى يدهسَ السّائق دوّاسة البنزين وتندفع الحافلة قذيفة تطوي الأرض وتُحلِّق مُجَنِّحةً مع زفير الرّيح. تتكسّر العجوز فجأة، كأنّها كأس بلّوريّة أفلتت سَهواً من اليد وهوت شاقوليّاً على الرخام. تنتهي شظايا. تُلقي ببدنها على الصّخرة من جديد. وتبخّر الأمل في الهواء. تلتفتُ في اتجاه الحافلة القاسية. تودّعها بالدّمع وهي لا تزال تشيّعها بمُقلتيها حتى تغدو كرة ضوء حمراء صغيرة في آخر الدّرب الحزين ويزدردها الضباب.

تتنهّد. تكفّ عن التلويح بيدها. تتكئ على الأغصان فتأخذ بيدها تواسيها وتعينها على النهوض. يُسدل اللّيل ستائره ويهبط الظلامُ على المحطّة المهجورة. تَمضي مُدبرة تجرّ الحزن. تَسمعُ خشخشةً تَخرُج من السّباسب بقربها. إنّه الخنزير البَرّي، جاء يطردها.

في بيتها كان الشّوق يؤنس غُربتها. ولقد كان ذاك الشّوق حارس كنزها والمؤتمن على ما يحويه الصّندوق الخشبي. لا تدري لماذا نقضت عهدها على نفسها وفتحته بعد مضيّ كل تلك الأعوام. أتُلبس ابن النّاس من متاع حفيدتها وهي حيّة تُرزق؟ كانت تلوم نفسها بشدّة لأنّها كانت توقن أنّه نذير شؤم. وكأنّها قد قطعت الأمل من عودتها وأبيها من الغربة بعد أن فرّت بهما تلك المومس اليهوديّة. هي إلى الآن لم تهضم زواجهما القائم على مصلحة وكفى.

كانت تجزم بأنّ امرأة نامت معه قبل الزواج وحبلت منه، ستَحبل من غيره خائنةً وإن طال الزّمان. كانت تُصرّ أنّها مومس. وسوف تَبقى كذلك. لن يُنظّفها شيء. وإن استحمّت بماء الجير فلن تبيضّ. إنّما هو عمىً أصابَ بصيرةَ ابنها من مفعول السّحر الذي أطعمته إيّاه بعد أن ذوّقته من ثمار جنّتها المَسمومة تفّاحاً وبطّيخاً.

لفّت العجوز المولود الجديد في دثار صوفي وقرّبته من ثغر أمِّه لتقبِّله أوّل قُبلة. لكنّ المرأة مُمدّدة خائرة لا تقوى أن تُحرِّك شَفتيها المُشقّقتين من شدّة الإعياء. كانت تَئِنّ وتزفر وَهَناً. قد ازدادت جفافاً على جفافٍ وأضحت كقرن الخرّوب. أمسكت الجدّة بيدها. مسحت بها على وجه فصيلها. غَمغم. وبدأ يلعق إبهامها ويرضَعها.

”يبدو أن هذا السّمين جوعان“، قالت الجدّة.

فتى البؤس كان حلواً. يبدو أنّه تأثير سكّر الحمل. كما أنّ ضِحكته عسل. كان مُكتنزاً وبديناً. رأسُه مكوّر في تلك الطاقيّة البيضاء المُخطّطة بالأزرق الدّاكن. لقد وقعت عليها العجوز فوق أحد رفوف خزانة الفقر تلك. لم تكن الألوان متناسقة. زهري قزوردي على أزرق على أبيض. كوكتيل من الألوان المُضحكة. ذاك المهرِّج الصّغير الذي يتهكّم على المأساة. أصبح يقهقه الآن. كان شعره خفيفاً. شبه أصلع. تنبت بعض الشّعيرات هنا وهناك كَريشِ الفراخ حديثة التفقيس. أنفه أحمر وكبير. ملأ وجهه. أنفٌ مرِحٌ كأنف المُهرِّج. كانت أجفانه مورّمة مُغلَقة ببعض الدّرن المُصفرِّ العالق بين الأشفار. لم تكن له رقبة. كان رأسه ملتحماً على نحو مباشر بجذعه من السّمنة. كما أن له حوصلة كحوصلة طائر العلجوم. من يرى النِّصف العلوي للفتى مع تلك القَلنسوة المُخطّطة يظنّ أنّه لص. من يرى نصفه السّفلي الملفوف في حُمرَته كحبّة طماطم عملاقة، يلمح شبهةُ الكبير بـ”بابا نوال“ رجل الهدايا السّعيد. في ذلك النّصف السّفلي الطّريف نفسه، وبالتحديد بين فخذيه المُشَحّمين تَقعُ بُنَيّتهُ الخجولة، مُنكمشةً من البرد كرأس حلزون خائف. كانت مُعتَمّةً في ضميدة بيضاء منقوعة في رشاحة أعشاب طبيّة. كان ذاك المكان هو ما يستهوي الجدّة ويَشدّ انتباهها دون الأمكنة الأخرى في جسم الدّيسم المكتنز.

تذكَرت أن تسقيها كأس ماء تروي بها عطشها. شربت المرأة على عجل كأنّها سبقَ أن ابتلعت كثباناً رمليّة أو لثمت من ماء البحر. ”على رسلك يا ابنتي. ستشرقين“. طلبت كأساً ثانية. سكبت الجدّة المزيد. وناولتها. رمت بها المرأة في قِرْبَتِها في بضع ثوانٍ. ما زالت عطشى. أشارت إليها بأن تناولها القارورة. ففعلت. وأخذت المرأة تشرب ملهوفة من فم القارورة حتى شرقت وانتابتها موجةُ سعال حادّ. رمت اللّعينةَ من يدها. تدحرجت القارورة واختبأت تحت السّرير. جلبت الدّاية منديلاً ورقيّاً. وشرعت في تجفيف وجهها العائم بالماء. ”لُطفكَ يا ربّ. ما من بأس يا ابنتي الغالية. خلاص. هوّني عليكِ وافرحي فقد انتهى كلّ شيء. انقشع الكابوس. افرحي بصبيّكِ“، تقول الجدّة وهي تربت على كتفها وتمرّر يدها على شعرها المُبلّل بحنان. حملت الطِّفل ودسّت به في حضنها البردان. وأغلقت ذراعها عليه. استلطف ذلك وبدأ يُغمغِم ويتحرّك.

– ماذا ستُسمّينه؟

لم تُجب المرأة النّافسة فقد كانت تتأرجح في مهد الدّوّار. يهزّها بين نومٍ وصحو. أعادت العجوز عين السؤال من جديد: – اخترتِ اسماً لهذا الهرير السّمين؟

– ...

– فوزيّة أتسمعين؟

– سَ... سَ... سعيد.

أجابت المرأة بصوت مرتَعشٍ متَقطِّع.

– ماذا قلتِ؟ لم أسمع. أمُّكِ طرشاء. بصوت أعلى يا امرأة.

– سَعيد. سعيد.

أضافت الحرمة وهي تصيح.

– أتمزحين؟ لله درُّك يا ابنتي. أيّة سعادة ترين في هذا الكوخ القميء. في ربوع البؤس هذه؟

قالت العجوز مُستغربة.

– آه...

– سلامة قلبك من الآه يا حبيبتي. إنّه اسم جميل. كنت أَهزّرُ معكِ فقط. عسى أن يجرّ معه السّعادة من أذنها، هذا السّعيد.

– ...

– سأذهب إلى كوخ تلك البومة، لأبشّرها أنكِ وضعت أخيراً. ستفرح حماتك كثيراً. هاهاهاها.

أضافت الجدّة ضاحكةً بنبرة تمزج الفذلكة بالشّماتة ثمّ تملّكتها نوبة سُعالٍ نُخامي سُرعان ما طغت على الضّحكة فأخمدتها.

– اللعنة على العاهرة. مُجرّد ذكر سيرتها يجلب المصائب... أَرضِعيه. لا تنسي أن تُرضعيه.

ختمت الجدّة وهي تغلق الباب من ورائها وما زالت تَسعل وتتنخّم.

مشتِ العجوز بين البرك العكرة بحذر، محاولة عدم الغوص فيها. لكن على العكس تماماً كانت تغطس في الوحل إلى الكعبين. بلغت عتبة الباب القبيح. راحت تلطخُ كفّها عليه حتّى كادت تُصدِّعه. كان الطّرق مُنفَعلاً مُفعماً بالغضب بحيث يَسهل التّعرُّف على هويّة الطّارق وما وراءَه من بلاء دون مدعاة للاجتهاد. استَمرّت العجوز في الضّرب على الباب إلى أن كَلّ مَتنُها. لا أحد يردّ عليها.

– افتحي يا شمطاء.

قالت الدّاية وهي ما تزال تطرق.

– بَركانة افتحي الباب يا فاجرة. أنا الدّاية يا صمّاء.

ما من إجابة.

مضت عدّة دقائق والعجوز واقفة أمام عتبة الباب الأجرب تتبادل معه اللّكمات والمطر الغزير يصفع وجهيهما ويؤلِّبُ كلّاً منهما على الآخر. عندما تواصل الصّمت، أيقنت أنّها تتجاهل نداءَها وتطردها دون وجع رأس. مدفوعَةً بذُلّها، تناولت العجوز حجراً يفي بالغرض، وراحت تَصرخ وتضرب القفل، تريد أن تَخلعه وتلِجَ عنوةً لتُهشِّم رؤوس الأرانب المُختبئة بالدّاخل. عندها ارتفع صوت مبحوح وأخذ يقتربُ شيئاً فشيئاً قائلاً: – ألا تصبرين يا عجوز الشؤم. مهلاً أنا قادمة.

وفُتحَ الباب. وأطلّت بومة عوراءُ من خلفه، تحملُ فانوساً قبيحاً كوجهها.

– هذه أنتِ يا...

– يا ماذا يا ابنةَ العاهرة؟

قاطعتها القابلة الغضبانة ذات الملامح المُتجهِّمة، وأضافت قائلةً: – ساعة لتفتحي الباب وأنا تحت المطر؟

– ما الذي جاء بكِ؟ ماذا تريدين؟

أجابت الحماة ممتعضة.

– جئت أخبرُكم أن زوجة ابنك قد ولدت البارحة. أنجبت صبيّاً. فتعالي معي لتريه ولنرى ما نفعل في أمِّه التي ماتت وحيت في وضعه.

– ليس لي أبناء. وليس لي كنائن. ذاك فرخُ حرام، فمبروك على أمّه الزّانية، هو وعارها به. أمّا ابني فقد رمى عليها يمين الطّلاق وتركها لها لتعهر كما تشاء. اغربي عن وجهي.

ثمّ دخلت إلى كوخها وأجفأت بابه القذر دون أن تُطيل الحديث في الموضوع. لم تنصدم القابلة من قلب صوّان كهذا لأنّها كانت تتوقّع ردّ الفعل ذاك. كانت تعلم أنّها تدُقّ على باب ضبعة بلا كبد، فلن تُلبّيَ مطلبها مهما ألحّت. لذلك لم تُلِحّ. بصقت عليها وعادت أدراجها تجرّ كراعيها بوَهَن. وتفكّر في ما تقول لذات البخت التي تنتظرها في الكوخ الحزين بالجهة المقابلة. بعد وقت طويل، وصلت. استقبلها صُراخ الرّضيع الذي بدا مُتفجِّعاً كأنّ بأساً ما أصابه. كان الفتى الصّغير ينعقُ كما ينعق الغراب. وقد كان نعيبه يزرعُ الفزع في نفس سامعه ويحثّه على الاستفهام بهوسٍ عمّا يجري له. كان صياحه حادّاً يثقب طبلة الأذن. لقد قلب الكوخ بزوبعة من بُكاء. انزعجت العجوز رغم أنّ سمعها ضعيف.

– فوزيّة يا لك من أمّ فاشلة.

صاحت مُعاتبةً. ثمّ تابعت قائلة:

– كيف تتركين ابنك يتخضّع هكذا؟ غريبٌ أمركنّ أمهات آخر زمان.

لكن المرأة في سكون مُخيف لا تستجيب. أزاحت مُرتابةً الرضيع جانباً. وأخذت ترجّ المرأة برفق وتطلب منها النهوض. إنّها لا تلبّي النداء ولا تنهض.

تضاعف قلق العجوز وباتت ترجفُ في مكانها كسُنبلة قمح في مهبّ نسائم الصّيف. ترجُّها رجّاً عنيفاً. وتصفعها على وجنتيها المُتجمّدتين حتّى تترك الأصابع آثاراً على الجلد الذي ازداد شحوباً وابيضاضاً. غائبة في قيلولة دائمة. ترفع يدها المرتخية على الأرض، وما إن تتركها حتى تتدلّى وتسقط من جديد أين كانت منذ قليل. تعيد الكرّة ولا فائدة. هامدة هي كأخشاب زورق صيدٍ غريق تقيّأها البحر على الشّاطئ، وظلّت هناك على الرّمل، منسيّةً طوال أعوام. المرأة لا تفتح عينيها. ولا تحسّ بيدها ولا بأيّ شيء حولها. شعرت العجوز بكرة شعر عالقة في حلقها. تيبّس لسانها والتصق داخل فمها. ازدادت الهواجس وزاد منسوب الهلع. أحسّت بدوار شديد. اتّكأت على الجدار. أرخت برأسها فارتطم. وانزلقت منحدرة إلى بئر لا قعر لها. أيقنت أن الأسوأ قد حلّ ركبه. مصيبة يا إلهي. إنّها لا تتحرّك. لا تحسّ. لا تتنفّس. ونبضُها قد توقّف. فوزيّة ماتت يا قوم! ماتت يا أهل القرية! يا من تمنّيتم لها الموت! ها قد ماتت. تولول العجوز مُحوقلةً وتجري حافية القدمين في الوحل كالمعتوهة.

5

جنازة البؤساء

مشّطت العجوز كلّ شبرٍ من القرية حتّى دميت قدماها الحافيتان من الحصاة والأشواك، وقد تزيّنتا بالشّقوق والدّم وحنّاء قبيحة من طين. كانت تحاول في يأسٍ أن تجد من يُغيثها ويمُدّ لها يدَ العون في جُثّة امرأة فقيرة، نفقت على فراش الولادة وفي رضيعها اليتيم الذي ينامُ عميقاً على صدرها بعد أن أنهكه النّحيب. لم يُغثها أيُّ أحد رغم أنّها دقّت على كلّ الأبواب.

كان الجميع يتملّص من الورطَة ويرمي بكرة النّار إلى جاره. أمضتِ العجوز ذلك اليَوم المُثلج كالكرة مَقذوفَةً بين ساق وساق. هذا يتجاهل. ذاك ينام. الآخر يَطرد. وغيرُه يَنهَر. ولا مِنهم مَن تحرّكت في قلبه ذرّة رَحمة وأشفق على تلك الحرمة المُبتَئسة وحالها الرّثّة. وكأنّ قلوبهم من حجارة. كانوا يتعلّلون بِصَحيفتها المسوَدّة بالخطيئة كي يُغطّوا على جُبنهم.

عادت العجوز في تيهٍ إلى الكوخ حاملَةً على عاتقِها الذُلّ والخيبة مع بعض. الحيرة تطلق الرّصاص على رأسها الخَرفان. وشوشةٌ تهمسُ في أذنها الطرشاء بأسئلة لا أجوبة لها. أية هديّة ميلاد هذه؟ ما هذا السّعيد صاحب السَّعد الواقف؟ يبدو أن حاصد الأرواح كان مُتنكِّراً في بدلة بابا نوال الزّاهية تلك وقد استبدلا الأدوار. أهي مسرحيّة؟ أيُعقل أنّهما أخطآ في العنوان؟

لكنّ أمور الحياة والموت أمور دقيقة وشديدة التّعقيد. لا يمكن العَبثُ بها ولا تقبَلُ الخطأ.

كلُّ الأرواح مُدوّنة في دفتر الحياة. متى تموت الرّوح تُشطبُ من هناك وتُدوّن في كرّاسة الموت مع التاريخ بالسّاعة والدقيقة والثواني، وأمامها بين هِلالين سَبب الوفاة. هذه الأشياء ليست مزاحاً. قبضُ الأرواح عملٌ دقيق جدّاً. كانت مَكيدة إذاً؟

لقد تآمر رجل الهدايا مع رجل المنايا فكانت هديّة مولد ذاك الفتى البائس، أن قُبِضَت بِمَقدَمِه روحُ أمِّه الملعونة. ثمّ ضحكا وهما يقارعان بالكأس ويشربان نخب نجاح المؤامرة ويهنّئانه: ميلاداً مجيداً أيُّها النّغل اليتيم.

كانت العجوز كزجاجة نبيذ فارغة رمى بها أحد البحّارة السّكارى إلى الموج، واتكأ على درابزين السّفينة يتابعُها كيف تتباعد وتسافر إلى قدرها المجهول، بينما طفت هي هناك على سطح الماء وسبحت بين مدٍّ وجزر، حائرةً لا تدري أين سيجرفها التيّار. لم تحسّ بالدموع وهي تنحدر على خدّيها وتمتزج بحبّات المطر. كانت العجوز تبكي بلوعة وترثي لحال الأمّ النافقة وفصيلها اليتيم. اشتعل رأسها شيباً ولم تشعر بألم داخلي كالذي يفترس فؤادها في هذه اللّحظات العصيبة. شعور بالضّعف وقلّة الحيلة يؤجّجه حقدٌ شديد. كانت تُحسّ أنّها تحترق من الدّاخل وأن الدّخان يتجمّع ويتكثّف في صدرها وبطنها باحثاً عن مخرج. يتواصل الحريق النّفسي. وتتزايد كمّية الدّخان في حيّز باطني ضيّق. يتضاعف الضّغط إلى درجة حرجة حتى يخرج من مسام جلدها المُترهّل. كانت العجوز الثائرة تنفث الدّخان من كلّ مكان كأنّها أنثى تنّين أو فوّهة بركان. لقد كانت تتمنّى لو تَحفر جُبّاً عميقاً يمتدّ إلى نواة الأرض. ثمّ تُلقي بكل أهل القرية فيه، فيتكدّسون هناك بالقاع فوق بعض. تجلب الخرطوم. تفتح ماسورة الصّهريج. وتُغرقهم بالوقود. ثمّ تتناول عُلبة كبريت وتُضرمُ فيهم النّار. بعدها تجلس لتتفرّج. كانت تتوق أن تراهم كيف يتفحّمون وتنصهر جلودهم وتُشوى أجسادهم كأنهم سفافيد من لحم البقر في "بارباكيو" كبير. كانت تريد أن تسمعهم يستغيثون ويترجّون من أجل شربة ماء، فتتبوّل عليهم من الأعلى.

لم تكن تلك المرأة الفقيرة فاسدة ولم تكن زانية حسب ما تعرفه عنها وما رأته في فرجها الذي لا يُشبه فرج عاهرة. لأنّ معاشرة الرّجال بكل بساطة كضربة فأس في لحاء شجرة، لا يمكن أن لا تترك أثراً يَدلّ عليها. على الأقل بالنّسبة إلى قابلة من قديم الزّمان. بصدق لم تكن المرأة ابنة فاحشة. وبربّكم، مَن هذا الرّجل الأعمى والمُغفّل الذي قد يطمع فيها أو يشتهي مضاجعتها وهي بشعة دميمة المنظر ومُسطّحة من الأمام والخلف؟ لم تكن أنثى أصلاً. لم ترث من معالم الأنوثة شيئاً. يعني بهيمة من فصيلة ما، تتكلّم

وتمشي على قائمتين ليس إلّا. إنّما هو كيد الإنسان النّجس. كي يرضي غريزة الشرّ في روحه ويُطفئ عطَشهُ الأزلي إلى الفعل الكريه.

كذا شاءت الأقدار أن تعيشَ فوزيّة وحيدة وتموت وحيدة في قبوٍ مظلم لأنّ محكمةً أخلاقيّة باطلة الْتَأَمَت على إدانتها ونصبت لها المشانق رغم براءتها من التُّهمة. ها هي ذي جثّةً متصلّبة ممدّدة على حصير يابس من الحَلْفاء. يرثيها مواء هرّها الذي لا يكاد يسلخ يوماً من العمر، ودموع حارّة من أمِّها الثانية بعثها لها المكتوب هبة من السّماء.

مضت ليلة والمطر لم ينفكّ ينهمر غزيراً. كانت العجوز تنتظر آملة في هدنة تستغلُّها لقضاء بعض الشؤون المستعجلة. لكنّه لم يتوقّف ولو برهة قصيرة. تتواصل المؤامرة. بيضاء الثّلج نائمةٌ هناك في الزاوية الحزينة، مسجّاة على فراشها الخشبي المهترئ.

حينما أشرقت الشّمس في الأفق الحزين، ربطت الجدّة الثّاكلة حفيدها على ظهرها المُقوّس بقماط من المحارم. دثّرته بملاءة صوفيّة. وقصدت كوخها لتُجهّز ما يلزم لدفن الميِّتة بمفردها من دون مساعدة أي كلب منهم. لم يستغرق الأمر سوى مدّة وجيزة وانكفأت مُدبرة إلى كوخ البؤس بعد أن حضّرت ما تيسّر لتقوم بواجب إكرام الميِّت. لم تُكرَم تلك المرأة في حياتها يوماً. عاشت ذليلة وها هي ذي تموت ذليلة. لقد أمضت حياتها كبيضة مفقوسة في مقلاة. تتقلّب في الزيت المغليّ على جنوبها حتّى تنضج وتصبح غداءً لأحدهم. لقد كانت في حياتها عُجّةَ بَيض بائسة.

هذه أوّل مرّة تُكرَمُ فيها. كيف؟ بدَفن جيفتها تحت التُّراب كي تتغدّى على هُزالِها الدّيدان هذه المرّة. تقدّمت العجوز من جُثّة ابنتها. أنقعت المنديل في قليل من الماء الدّافئ. وأخذت تمسح برفق بدنها المتّسخ والمتيبّس كأنّه قطعة أثاث قديمة. لم تكن جثّة المرأة تتطلّب الغَسل. إنّها شهيدة الولادة حسب فتوى الأم الكبيرة. هي طاهرة وكلُّ من يقول عليها زانية فوكيلُه الرّب. أغمضت رموشها. ألقت عليها لحافاً أخضر كانت العجوز تغطي به إسفنجة سريرها في الكوخ. كان كفناً قبيحاً لكنّه كان يفي بالغرض. ثمّ ربطت عليه بخيوط متينة فوق الرّأس وتحت الأقدام ومن الوسط. وأخذت تجرُّها إلى

الخارج. لم يكن من السّهل على عجوز في مثل سنّها أن تُحرِّك جُثّة إنسيّةً مُتصلِّبة منذ يومين. كانت الأتان مُنتصبةً في خشوع، تنتظر الجيفة الآدميّة التي أوكل إليها حملُها، وجحشُها الأشعثُ بقُربها يمضغ بعض الحشائش النّديّة ويُهاتر بذيله القصير وخرطومه الصّغير. لم تهتدِ الجدّة إلى طريقة يسيرة تُحمّل بها الجثّة على ظهر البهيمة. قامت بعديد المُحاولات لكنها كانت فاشلة كلّها بسبب استيقاظ آلام الظهر والمفاصل المتآكلة من الوزن الثّقيل الذي يرفع عليها إثر كل محاولة. أقعت العجوز على مؤخّرتها النّحيلة ترتاح. أخرجت من صدرها حُقّة النّفّة التي كانت مُخبّأةً في إحدى طيّات اللّحاف. وضعت في أنفها وفمها القليل من النّشوق. وسحبت نفساً عميقاً. فهمت الأتان ما ألمّ بصاحبتها من حُزنٍ وعجز. جثت على رُكبها كما تفعل النّاقة، رغم أنّ الحمير لا تفعل كما تفعل النّوق وتخالفها في هذه العادة السّيئة عندما تُركِب أو تُنزِل أحد البشر. التصق أسفل بطن الأتان بالأرض. شكرت لها العجوز بأن مسحت على رأسها وربتت على عُنقها الممتد. نهقت هي وحرّكت رأسها إلى الأسفل كمن يقول إنّه واجبي ولا شُكر على القيام بالواجب.

بعد عناء، تمكّنت الجدّة أخيراً من رفع الجُثّة الخضراء على ظهر الأتان. أحكمت تثبيتها بحبل ثخن. تناولت المقود. وسارت الجنازة في صمت وقور نحو المقبرة. كان موكباً مهيباً على شرف الفقيدة التي غدا اسمُها بين أسماء الأمّهات الشّهيدات الآن. في الموت أيضاً تُراعى الطّبقات الاجتماعيّة والنّسب والجاه. وهي بِدعة أخرى من بِدَع البشر. فإذا صادف المرء ومرّ بجنازة تقطُر أسىً وحزناً، وتعجّ بالرؤوس والطواقم السوداء الفاخرة، تنطلق من ركبها زفرات حسرة ونهيد الأسف، وأناس يحملون تابوتاً بُنّيّاً أملس برّاقاً من خشب رفيع، مزخرفاً بنقوشٍ وأدعية بأحرف ذهبيّة، كأنّ فرعوناً يرقد فيه، فتأكّد أن الميِّتَ من ذوي الشّأن وصاحب مال. أمّا إذا كانت الجنازة هزيلة، كمشة أنفار مشتّتين، أغلبهم شيب، وبعض الشّباب المتّقين، وسامِريّ عابر سبيل من صائدي الأجر، يحملون نعشاً من خشبٍ بخس، مُرصّعاً بشاماتٍ سوداء قبيحة والكثير من المسامير المُعوجّة، موشّى بشباك العنكبوت وما علق بها من خنافس، مهترئاً، مُقشّرَ الدِّهان، تئنّ مفاصله، مُبتلّاً مُعشوشباً من النّدى،

ويسود الجنازة المرح والفكاهة والتفوّه بالرذائل، تأكّد أن الميِّت منتوف وجيبه مقعور وموته كحياته لا فرق بينهما. إن عاش لا أحد يسأل. وإن مات لا أحد يبالي.

هو كذلك السّلّم الاجتماعي عند البشر. كلُّه درجات. وكلٌّ درجة تساوي وزنك النّقدي في سوق الحياة. وإن لم ترضَ بمهرك في تلك السّوق، التي تشبه سوقَ الدّواجن، فما عليك سوى أن تفتل عضلة ذراعك ويرضى عليك من هو أعلى منك شأناً ليدعك تتسلّق. في بعض الأحيان تصل إلى القمّة وترى الدنيا من فوق مجرّد نملة صغيرة. في أكثر الأحيان تنزلق وتسقط من الأعلى أو يدفعك أحدهم من على السلّم، فيدقّ عنقك وتتهشّم عظامك وتتحوّل إلى معجون طماطم.

كان موكب جنازة المرأة اليتيمة مهيباً على شرفها، وقد حضره الأعيان من الحيوانات الأليفة في القرية. كانت هناك الأتان التي تحمل جيفتها. وجحشها الوقح الذي لم ينفك يطارد ثديَيْها كلّما تأرجحا صوبه. كانت هناك كذلك كلبة سائبة، جرباء نسلَ فروها من البؤس، كانت فوزيّة تُعينها على الزّمان بأن تجود عليها برغيف خبز يابس أو فواضل مُعجّنات. جاءت تقوم بواجب العزاء وتردّ المعروف. كما حضرت الجنازة عنزةٌ بيضاءُ لم يعرف أحد من أين خرجت. برزت هكذا بغتةً من خلف سطر التّين الشّوكي كالملائكة. كان وجودها كافياً وزيادة أن يواسي أفئدة آسية مضرّجة بالجراح وتنزف من الحزن. لم تُدِرْ ظهرها وتغلق بابها كما فعل هؤلاءِ الكلابُ من جنس البشر.

نفس غريزة الخير تلك خُلقت مع الإنسان منذ الأزل. لكنّه تحرّر من عبئها ما إن وطأت قدمُه القذرة تراب الدّنيا القذر بعد أن طُرد من الفردوس. على الأرض استأصلوها من عروقها. لذلك لم يَقعد في الدنيا خير هذه الأيّام القاتمة. لقد صُفّيت الفضيلة بمقصلة الشرّ.

كانت العنزة تهرِّج في الجنازة: تارة تقفز على الهضبة، وتارة أخرى على الجحش القزم. مرّة تشتمّ مؤخرة الأتان، فتركلها بحافرها على الفور. ومرّة تقضم ذيل الكلبة أو تنطحها برفق. ثمّ تُعرِّج على الأتان الآدميّة الأخرى تلهو معها أو مع كرة اللّحم الملفوفة في الصّوف فوق ظهرها المعوجّ. لم يكن مزاج

العجوز الخرفانة يسمح بالمهاترة في تلك اللّحظة التي تستوجب حدّاً أدنى من الجدّية. تنهرها بحزم وتفرض عليها الالتزام بالتشكيل في ذيل الموكب. كانت العنزة تنصاع لأوامر الجدّة الصّارمة. لكن لا تصمد مُطوّلاً في ذلك الانضباط المُملّ. فترتدّ إلى اللّعب والعبث من جديد. مع نفحاتٍ من الجِدّ والتهريج، دبّت الحياة في ذلك الموكب البهائميّ الفاقد للحياة.

عند الظهيرة وصل الجمع إلى باب المقبرة.

6

مقبرة الأحزان

فُتح الباب القصديري، فطارت أسراب المُطوّق المرابطة في صفوف على قُضبانه، وفاحت رائحة الموت. كان هديل حمام المقبرة ونقيض العقبان ينشّزان مع مزمار الرّيح في ذاك الخراب. كانت سانفونيا الموت تُعزف هناك بين القبور احتفاء بمقدم الجنازة. سرى شعور بالوحشة والاغتراب في أرض الأموات تلك كما ساد صمتٌ مفزع. توقّفت الفرقة السّمجة عن عزفها الفاجّ. فاض الخشوع على كلّ النّفوس التي كانت هناك. مضت دقيقة صمت. كان طقساً تقليديّاً مُقدّساً للترحيب بالسّاكن المنتقل حديثاً إلى العالم السفلي.

توغَّلت العجوز بين الأجداث القبيحة تتأمّل الحياة وهي واقفة على أطلال الماضي البعيد الذي تحوّل إلى خراب تسكنه الثّعالب. كانت مقبرة قميئة إلى أبعد الحدود. قد أكلها الشّوك والحشائش الطُّفيليّة التي تغوّلت وسَطَت على المكان. كانت تنبت بكثافة بين القبور المهدومة وفي الممشى وعلى سياج الأسلاك الشائكة وفي كل الأنحاء. وقد باتت وكراً للعقارب والثّعابين. أمّا أشجار الأكاسيا والكلتوس التي كانت تحيط دائريّاً بالمقبرة فقد طالت أغصانها كثيراً وتشابكت فروعها واغبرّت أوراقها الحفيفة وأصبحت تشبه الأدغال. كانت وارفة الظلال. وقد كانت ظلالها مُخيفةً كأنّها عفاريت. لم يكن هناك زبار يتعهّد أشجار المقبرة بالتقليم والتشذيب. لم يكن موتى القرويين يستحقون مقبرة بحديقة جميلة مزهرة وأشجارها مُقلّمة. لذلك تُركت هكذا سائبة من دون رعاية يأكلها النبات الوحشي. لقد تعاظمت المقبرة وكَبر حجمها كحيّ فوضوي في طور البناء.

لقد كان قابض الأرواح كالقابض في محطّة ميترو، يشتغل في كشكه الصغير على الرصيف بعزم وينتزع كلّ يوم العديد من الأرواح الفاسدة مثل علب

ساردين تجاوزت الأجل. لكن معشر البشر لا ينتهون ولا يلبثون أن يتكاثروا مرّة ثانية كالجراثيم واللُّعبة العبثيّة تبدأ من الأوّل.

كانت فوضى عارمة تعمّ المقبرة كأنّها موقع هدم نشط. ركام القبور المُحطّمة يملأ البطحاء. كانت غالبيّة القبور مهدومة تطلُّ من بعضها أخشاب اللّحد وعظام. لقد جرفها ماء المطر وحفرها الخنزير الوحشي. حيوانات كثيرة كانت تتردّد على المقبرة لأنّها لم تكن محميّةً بسور.

حائط واجهة المقبرة، كان قبيحاً وآيلاً للسقوط. لم يكن يمتد سوى بضعة أمتار على جانبي جِهاز البوّابة الأماميّة. على الرّغم من ذلك فقد كان موشّحاً بشقوق عريضة ومتفرِّعة تسري في انكسارات كثيرة كأنّها ضوء يخترق موشوراً. وقد أَوَت إلى تلك الشّروخ وثُقَب الآجرّ المكسور في الأطراف سَحالٍ وفئران. كانت واجهة بشعَة مروعة كأرض عطشى عذَّبتها سنين الجفاف ومزّقتها أشلاء. كان الجدار مكسوّاً بصُفرة مُثقلة بالهموم والحزن كوجوه الأموات. كان مُغبرّاً ومُتّسخاً ببراز الكلاب وزق العصافير. كانت الرائحة كريهة.

ها هو حفار القبور يطرب نفسه بمقطوعة مجوز فجّة. ربّما أصابه البرد والعيش مع الأموات بالجنون. على مقربة من ذلك العرض القبيح، كانت العجوز ترمقه بنظرة شزراء وتزدري سلوكه الهمجي. ما إن تفطّن إلى حضورها حتى ارتبك فجأةً وانتابته قشعريرة من الخجل وما ألمّ به من عار. لم يعرف ماذا يفعل. أدار وجهه إلى السنديانة وحسب أن شيئاً لم يكن. بيد أنّ موجة من الحكاك غزت جلده وفضحته. كان الوسخ يحكُّ كل جسمه تحت القشّابيّة كأنّه جَرِب. لقد تعرّق بغزارة.

”يا هذا؟... هاي أنت...“. بينما كان هو مُتحجِّراً هناك ويرشق نظره في السّماء الرماديّة التي بدت كأنّها منقوعة في برميل رماد أو مُلوّنة بقلم الرّصاص. ما زال يتظاهر أنّه لم يسمع. صرخت الأمُّ الكبيرة وقد بدأ يستفزّها تجاهله ويُغضبها أكثر: ”يا عمر. يا زيد. يا مبارك. يا مبروك. يا بو قشّابية. يا فرجاني“. لم يلتفت... ”يا مُصيبة!“. التفت توّاً.

كان مصيبة المصائب بالفعل. أشارت إليه، فأقبل باسماً كأنّه يوم سعده. انتبه إلى الجُثّة النّائمة فوق ظهر الأتان. ازداد وجهه بشاشةً وازداد ثغره اتّساعاً حتى برزت أضراسه الخارثة. لم يتوقّع أن يحلو لأحدهم أن يحلو لأحدهم الموت في يوم مطير كهذا اليوم الذي لا تخرج فيه الكلاب.

كان يحملُ كيس عُدّته على كتفه المتينة ويُسارع نحو الجدّة في لهفة. ما إن وصل وضع كيسه على الأرض، وبادر بالتّحية رافعاً كفّه اليمنى.

– السّلام عليكم.

تجاهلت الجدّة سلامه.

– اعذريني يا أمّي لم أسمع. أأأأأ... كنت... كككككنت...

– تتبوّل.

أضافت العجوز. فخرس واحمرّ مُحيّاه وعاوده العرقُ والجَرَب.

– ...

– ...

طأطأ رأسه.

– بمَ أخدمكِ؟

– احفرْ لها هنا.

أضافت وهي تُشير إلى جذع شجرة السّنديان في صدر المقبرة.

– على عيني.

أخرج الحفّار فأسه ورفشه من بطن الكيس. رشق الفأس في الأرض. بصق على راحتيه وخلّلهما جيّداً بالبُصاق. أحكم على الذّراع من وسطها وشرع يقلّب التّراب بجنون. كان صوت الحفر مدوّياً لأنّ تلك التّربة كانت مُثقلة بالحجارة والجذور المتهرِّمة. جفلت الأتان المُسالمة. ألقت بالجيفة من على ظهرها وأطلقت قوائمها تعدو إلى خارج المقبرة. صاحت الأم الكبيرة والزبد يتطاير:

– تمهّل أيُّها البغل المُتهمِّج. لقد أقلقت نوم الموتى وهتكت حرمة القبور بتهوُّرك.

لكن البغل الأطرش لا يُصغي ومُواصل في الحفر لأنّه كان قد دسّ قُطنتين كثيفتين في بوقَيْه قبل أن يبدأ عمليّة التدمير. كانت العجوز تهجوه وتسبُّ

سُلالته إلى الأسلاف القدامى في شجرة عائلته.

ما هي إلّا فينة زمان حتّى فتح على الجذر الأوّل للسّنديانة المُسنّة. تراجع وألقى الفأس من يده، واستدار نحو العجوز، يلتقط أنفاسه ويمسح العرق عن جبينه. وجدها مُنهمكة في الجُثّة الصّريعة في الوحل، تُتمتم وتلعن. فهم ما جرى خلف ظهره العريض.

أنزلت الجدّة حفيدها، يتيم الأب والأم، برفق وحملته في حضنها. كان يرتعش من البرد. اعتذر الحفّار على مقاطعتها في حذر، لطبيعتها سريعة الاشتعال ولغوصها في تفكير عميق، وانطلق وراء الأتان الجافلة يُطاردها. كان يبغي أن يداري سوأتيه. لم تُعره الجدّة أيّ اهتمام. كانت مُنشغلة تتفحّص وتتلمّسُ جثة ابنتها فاقدة السّند ومكسورة الظّهر والحوض بعد سقطتها العنيفة وارتطام بدنها الميت والمُتيبّس بالأرض الظّلفة كصحن فخّاري أو كجرّة من خزف. كشفت عن وجهها المُنطفئ كشمعة وُجوه الصّبح. انتبهت إلى أن رأسها قد شُجّ. حوقلت. لعنت الحفّار والأتان.

قرّبت الفتى البائس كي يرى وجه أمّه لآخر مرّة في حياته التي كانت مطلعها الأحزان. حملق الطفل مُطوّلاً في إبهام وحيرة. لم يبكِ. كأنّ قلبه قد تجمّد وغزا الثّلج تجاويفه. كانت مُقلتاه تتلألآن وتُضيئان في حياد مُتجرِّد من الإحساس. لم تتحمّل الجدّةُ، رغم صلابتها الفولاذيّة، نظراتِه وبسماتِه التائهة في وجه أمّه الميتة. ذرفت دمعات ماسيّة أخيرة قبل جفاف عينيْها المُسنّتين، وهي ترفعه وتضعه حذو جذع السّنديانة التي أنزلت غصونها دائمة الخضرة تحتضن الأمانة. ثم عادت إلى الجثّة المُتجمِّدة تتلو عليها الصّلوات وما تبقّى في ذاكرتها من الأدعية والآيات. لم يستمرّ الخشوع لوقت طويل، وجاء الحفّار يُدخّن ويجرّ خلفه الأتان الناشز وجحشها. أنهى السيجارة في نفسَين. وألقى بها تحت جزمته الضّاحكة يرفسها. ثم أوثق الدّابة من قائمتيها الأماميّتين، وهوى على مؤخرتها بكفِّه العريضة كمجرفة، يخلي سبيلها. نهقت الأخيرة وقفزت في اتجاه منبت الأعشاب البريّة. عاد هو إلى الأم الكبيرة باسماً، ينفض الغبار عن قشّابيته المتربة وهمّ في سرد بطولته:

– لقد هربت بعيداً. وقد وجدتها في... هناك... الحقل.

إلّا أنّ الأم الغاضبة وضعت سبّابتها على فمها، تُخرسه وتشير إليه أن يُعينها في حمل الجثّة. أقفل فمه الكبير واقترب من جهة القدَمَين، بينما حملت هي الرأس المدموغ. أدخلاها القبر. أجهش الصبيّ بالبكاء، هناك، كأنّه صحا من غيبوبة وتذكّر أن يبكي أمّه قبل فوات الأوان. أخذت الشجرة تداعب رأسه بأوراقها الحنونة وتُغني له هدهدة. لم يتوقف. بل زاد في نشيجه. أمّا الأتان فنهقت من بعيد، وما لبثت أن أكملت بهدوء سَلَطَةَ الصبّار والشّوك. نبحت كلبة فوزية نائحة، تسأل نفسها من سيُطعمها وقد راحت الطّيّوبة. ثم نكّست رأسها في انكسار. أمّا الحفّار فقد أشارت إليه أن يباشر في الرّدم ففعل. أخذ الخلد رفشه. وشرع في غمر الحفرة من كدس التراب بجانبها. أحاطها بالحجارة. دفعت له أجرته وأقفلوا مدبرين من حيث أَتَوْا، واجمين كأن أصابهم البُكم.

7

كابوس وحمى

كأنّه عشيٌّ صيف حارّ. الماء شحيح من كثرة ما انحبست الأمطار. قضى الزرع وخوت السّنابل وتكسّرت سيقانها المعوجّة. تشققت الأرض وتمزّقت من العطش. واصفرّ كلُّ شيء حيّ. كنا نحترق كأنّنا في إحدى قُرى جهنّم. الجبل أكلته النّار ويلوح أحمر يتوهّج من بعيد. من الدّخان الكثيف القاتم، يخرج شيخ أسمر البشرة، لحيته طويلة وبيضاء تكاد تكنس الأرض المُغبرّة، يمسك مسبحةً من خَرز بين أصابع جافة يابسة، يرتدي شاشيّة قرمزيّة فوق رأسه، يسدلُ على كتفَيه بُرنُساً يحترق فوق جلده، وهو لا يبالي كأنّها نار باردة ويقول:

– قد جاءكم يوم الحساب يا أهل قرية الخطايا! إنها الجحيم يا أهل الجحيم! يا شياطين!

جدّة عجوز، تتصبّبُ عرقاً تحت ظلّ شجرة زيتون أحرقها اللّفح وعقّمها الجفاف، تفكُّ لفائف بيضاء على رضيع ينشج، وترشّ عليه قطرات ماء، من قُلّة فخّارية شبه فارغة. فجأة تثبُ جزعةً، وتنتشل ذاك الحفيد المُحترق، وتركض إلى كوخ خشبي قميء، تنبعث منه رائحة عطنة كرائحة الجيفة. تلتفت إلى الخلف مُرتجفة، فترى كلب العمدة الشرس يقود كوكبة من كلاب أخرى مُستذئبة، ويلحق بهما قبل أن يلجا. تتعثر بحجر. يسقط الرضيع وتنكسر قُلّة الماء. المطاردة متواصلة. اقتربت الكلاب نابحة لاهثة واللعاب يتقاطر من أفواهها العُدوانيّة. تستجمع العجوز قواها. تلتقف الطفل الذي بات كلحمة مشوية، وتعدو نحو الباب المهترئ. القفل يأبى أن ينفتح. تدفع الجدة. يهتز القفل. تقترب الكلاب المكلوبة أكثر فأكثر. تدفع بكل ما أوتيت من قوة. ينخلع الباب وكتفها. ترمي برضيعها في الداخل. تحاول أن تلج في عقبه، لكن أنياب الكلب تدرك قدمها العارية وتنغرز عميقاً في لحمها. تنزُّ العضّة دماً أحمر قانياً. تتوجع العجوز وتصرخ ألماً. يهزها الكلب هزّاً. تنتفضُ كالفرّوج. تصرخ بصوت

أعلى. يمزّق ثيابها بمخالبه الضارية، ويخدش جلدها المُقشّر والمُحرشف كالسّمك المُجفف. يتطاير اللّحم والدّم ويبرز العظم. يجرُّها بعنف إلى الخارج. تقاوم الفريسة العجوز الجرّ وتتشبّث وهِنَةً بالعمود. يواصل كلب الجحيم الجذب. طلقة بندقية مجهولة المصدر، الأرجح أنها أتت من سطح الكوخ أو هي من السماء، وتخترق الرصاصة رأس الكلب الملعون. لا يموت إنما يترك ساقها، ويرفع عينيه المُلتهبتين ناراً كالقنديل إلى السطح، باحثاً عن الصيّاد الخفي.

تستغلّ هي تشتت انتباهه، في بحثه عن غريمه، لتنفذ بجلدها إلى داخل الكوخ وتحكم المزلاج. تبحث عن الجرّة بجانبها، طمعاً في رشفة ماء. لم تجدها. كان الكوخ نائماً في العتمة. التفتت. اهتدت أن شمعة تتكئ على آهات مفاصلها المُرتعشة. تستقيم بصعوبة. صفير وأصوات غريبة، كانت تتردد في أذنيها وتشعرها بالدوّار. تترنح في الظلام، استندت على أي شيء صلب متماسك يأخذ بيديها المُسنّتين، كما العميان.

يسعفها كرسيّ خشبيّ على مقربة من الحَشيّة الإسفنجية التي افترشتها على البلاط كي تنام عليها. أخرجت عود ثقاب. قامت بجرش رأسه على حافة الوقيدة الحرشاء، مرةً واثنتين ولم يشتعل لأنها كانت ما تزال ترتجف. انتهى به الأمر إلى كسرٍ في المنتصف، وانقسم إلى خشبتين رقيقتين وناتئتين، دخلت إحداهما في إبهامها العسراء، بين الظفر واللّحم. تأوّهت ألماً، ووضعت إصبعها في فمها تلعقها. أخرجت عود ثقاب ثانياً. سحلت رأسه على القدّاحة، فاتّقد شُعلة حمراء مُصفرّةً وزرقاء في القلب. كنست عن قلبها الخوف، كما يكنس الغبار عن قطع أثاث معطوبة في عُلّية بيت مهجور.

تزحف إلى فرجة بين لوحتين من ألواح الجدار، وهي تلهث من الرُّعب والعطش. يترك زحفها خطّاً دمويّاً على الأرضيّة. تلقي نظرة. فتجد الملعون ذا السبعة أرواح منتصباً على اثنتين، لسانه العريض يتدلّى بين أنيابه السفلى ويغطيه الزّبد، يزمجر، رأسه ينزّ من الفجوة التي أحدثتها الرصاصة، ويأمر بقية كلابه البشعة بأن تطوّق الخرابة.

الفصل الثّالث

الشّحّاذ

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخى عَلَيَّ بِأَنْواعِ الْهُمومِ لِيَبْتَلي
سُدولَهُ
فَقُلْتُ لَهُ لَمّا تَمَطّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجازاً وَناءَ بِكَلْكَلِ
أَلا أَيُّها اللَّيْلُ الطَّويلُ أَلا بِصُبْحٍ وَما الْإِصْباحُ مِنْكَ
بِأَمْثَلِ
اِنْجَلِ

امرؤ القيس

1

الفَرار

طول الطّريق كنت نائماً في العربة بالخلف. مرّ عامٌ عصيب لم أَرَ فيه جدّتي ولم أنم فيه بهدوء كما أنام الآن في الزِّحام، مسنداً رأسي إلى قارورة الغاز، بين قطع الأثاث المعطوبة والحشايا والوسائد والأواعي النّحاسيّة وأقفاص الدّجاج. كانت العربة صغيرة الحجم، لكنّها اتسعت تقريباً لكلّ شيء يفي بالغرض من متاعنا المتواضع. لم تكن القيلولة مريحة كثيراً بسبب ضيق المكان وازدحامه بالأغراض المعدنيّة التي تتناطح فيما بينها وتُصدر صريراً مُزعجاً، ولكني نعمت بالراحة من الدّاخل، راحة لذيذة، ألذّ من العسل وأحلى من السّكّر، هجرتني أشهراً عديدة حسبتُها باليوم واللّيلة أرشاماً فحميّة على جدران الإسطبل المُلوّثة بالجُنون وعفن الفُطر.

هناك، في الخلف، في الفوضى ونتانة الدّواجن، نمت بعمق نوم أهل الكهف والرقيم. نمت عميقاً على وقع هزّ الأتان وخبب حوافرها. كل شيء قد تغيّر بعودة جدّتي. عاد إلى طبيعته أو فوق طبيعته. رأيت الدّنيا من حولي تطلى بدهان ملوّن ذي رائحة قويّة، طغت على ذاك الأسود والأبيض الذي شوّهها في ماض قريب، وابتلعته. حياتنا عادت، بمقدمها، إلى الحياة من جديد، واستعادت طعمَها الشهيّ ورائحتها الفوّاحة، بعد الفتور والبسول ونقص التّوابل والبهارات، واكتست مرجةً خضراء نضرة كألوان الرّبيع، بعد أن انطفأت واسودّت مثل فانوس مُحترق. حتّى أتانُنا العجوز، نهضت من الموت، وها هي الآن متماسكة تجرّ بنا العربة بعزم، وتعدو إلى الأمام، دون هوادة، مثل فرس عربيّة أصيلة يُدويِّ خَببها القويُّ في الفضاء ويمزِّق صهيلها عاصفة الغُبار من ورائها. فَرَسُنا الشّجاعة، هذه، التي تفرُّ بنا من أنياب ذئاب القرية وكلاب العُمدة، نحو المجهول، كانت في يوم من الأيّام أتاناً جزوعةً تفرّ بنا من الذّئب

بين الحقول حينما كنّا نقصد المدرسة وجوه الصّبح. لكنّ الحال واحدة والوجهة واحدة، هروب وفرار من المجهول إلى المجهول. هكذا عِشنا، هكذا نعيش، هكذا سنعيش، وسوف نعيش، وسوف تبقى هي، فرسنا أو "حمارتنا"، مطيّتنا كي نفرّ بجلودنا.

كان النزوح إلى المدينة خيارنا الوحيد. بعد طول مسيرٍ، لم نتوقّف فيه إلّا لاستراحة قصيرة، نأكل فيها رغيف خبز، نشرب كأساً من الماء، أو نقضي فيها حاجة استعجاليّة من حوائج البشر. رَسونا، وقد كنّا أخشاباً يلهو بها بحر المجهول، على برِّ مدينة "الأخوات". على أبوابها، استقبلنا قطار أفعواني بصريره وفحيح مزاميره، يزحف على تلك السكّة الحديديّة التي يكسوها الصّدأ. ظللت أتابع زحفه وقتاً طويلاً إلى أن تشوّشت عيناي، فهو بطول لا حدّ له على الإطلاق، ثمّ التفتُّ إلى جدّتي التي ترجّلت من على العربة وأحكمت قبضتها على مقود الأتان، وبادرتها قائلاً:

– إلى أين يمضي هذا القطار يا جدّتي؟ كم هو طويل!

ضحكت جدّتي ضحكتها الجميلة تلك، ثمّ أجابت:

– نعم معك حقّ! إنّه أطول من الدّهر!

– ...

– أمّا وجهتُه، فإلى تونس العاصمة.

بعدها، وإثر مرور ذاك الرّاحف الطويل الذي يشبه الثّعبان، نخست جدّتي الأَتان، وتجاوزنا السكّة، سائرين إلى داخل المدينة الصّغيرة. كلّما توغَّلنا أكثر تزايد عدد النّاس، كأنّهم يخرجون، كلّ لحظة، من ضلوع بعضهم بعضاً. كان هناك الكثير من المارّة. الشّارع يعجّ بالرُّؤوس، رؤوس البشر والدّواب والقطط التي ظلّت، رغم الازدحام، تتناسل على الرّصيف، بين قشور البرتقال وجرادل الزّبالة وأوراق الجَرائد وشعر البقدونس المُقصّف.

بدت جدّتي متوجسّة ومنشغلة في التّفكير في شيء ما. لمست في عينيها الحيرة، وخمّنت أنّها تقول في نفسها أين سنهرب من كلّ هؤلاء البشر؟ لم تكن جدّتي اجتماعيّة كثيراً ولم تكن تحبّ الاختلاط بالنّاس، لأنّها لم تكن تثق بالنّاس جميعاً، غرباءَ كانوا أم أقرباء. وقد أورثتني، أنا، حفيدها، ذاك التّوحُّد

وذاك الحذر المبالغ فيه إلى حدّ الوسواس. عندما سألتها عن سبب هذا الاكتظاظ أخبرتني أنّ اليوم، الأربعاء، هو يوم السّوق الأسبوعيّة في هذه البلدة الحيويّة اقتصاديّاً.

منذ دخولنا إلى السّوق، وحتّى قلبها أين احتككنا بعديد من النّاس، كانت أصوات الباعة الجهوريّة تكاد تُمزِّق طَبلَتَيّ. كانوا يُطرون بضائعهم المختلفة من أثواب مستعملة وسترات جلديّة ومعاطف ثخنة وحقائب نساء وأغطية صوفيّة وفلفل وطماطم وبطاطا وبصل وثوم، إلخ، بأشعار شعبيّة غريبة الأطوار وبألحان طريفة. كنت أتفرّس في وجوه القادمين والمقفلين. تمعّنت فيها كلّها، وقد فَزعت حينما انتبهت إلى كل تلك النّدوب وما ارتكبه البردُ والبؤسُ فيها من صغائر السيّئات وكبائرها.

كُنّا، كلّما توغَّلت قافلتنا في السّوق، نتخلّى عن غرض من أغراضنا وتفقد العربة وزن حملٍ ما، فاسحة المجال لمؤخّرتي التي علقت، في شِبر، بين قطع الأثاث الرثّة. كانت جدّتي سالمة تتخلّص منها كيف ما جاء، بثمن زهيد. في الأوّل، باعت الدّجاجات بأقفاصهنّ في بطحاء الدّواجن. عندما تَمّت الصّفقة، رأيت بائع الدّجاج ذاك، النّحيل، صاحب الشارب الثّخن، يتبسّم بخبث والسّيجارة في فمه المهدوم. تقدّمنا قليلاً بعد، وتخلّت جدّتي على منسجها ورفيق دربها بقرشين، في دكّان من الدّكاكين، يبيع الأغطية الصّوفيّة والبرانِس. ثمّ جاء دور قصاعها وغرابيلها في جهة النحّاسين من السّوق. وهكذا انتزعت أغراضنا منّا ببعض القروش، الواحد تلو الآخر، إلى أن فرغت العربة تقريباً إلّا من حشيّتين ووسادتين وبعض الأغطية وبعض الأواني وطاولة خشبيّة صغيرة والبابور وقنينة الغاز. لم أكن أفهم لماذا فعلت جدّتي ذلك وهممت أن أسألها، لكنّ وجهَها المتجهّم والحزين في ذات الآن مَنَعني من ذلك. في آخر السّوق كانت هناك زاوية، فيها بعض من المحلّات بين أقواس أسمنتيّة كبيرة وسيّارة درك في الطّرف المقابل من الشّارع. تركتني جدّتي في العربة، على مقربة من المحلّات وقالت لي بأن أنتظر عودتَها وأنّها لن تتأخّر. ظللت أراقب خطواتها المتثاقلة من كثب. كانت تَجرّ كراعيْها المُسنّين من التّعب. دخلت أوّلاً إلى محل ذي واجهة بلّوريّة، يَبدو أنّها مصاغة. بقيت جدّتي هناك زهاء عشر

دقائق. ثمّ خرجت، وسرعان ما خرجت، لتدخل من جديد، إلى محلٍّ آخر، تفوح منه رائحةُ دخان النّرجيلة. لوحة كبيرة معلّقة فوق بابه كُتب عليها: عادل السّمسار. لبثَتْ، هناك، بعض الوقت. ثمّ خرجت، ومعها كهل أربعينيٌّ أسمر يحمل دائرة معدنيّة تتدلّى منها عدّة مفاتيح، مدبرين في اتّجاهي. عندما كانا يتحدّثان هممت أن أغادر العربة وأسعى خلف تلك الرّائحة الشّهيّة، التي كانت تتدفّق على يساري من أحد المحلّات النّشطة نسبيّاً مقارنة بجيرانه، الذين كانوا يصطادون الذُّباب ويعانون من ركود سلعٍ بائرة.

لم أشعر كيف سال لُعابي ولم أَعُد قادراً على ابتلاعه كّلما فاض على فمي وذقني. كانت رائحة وشهوة لا تُقاوَمان. التفتّ صوب مصدر الطّعام الطّازج، كأنّي مُنوّم مغناطيسيّاً كما في أفلام الكارتون. وإذا بها سفافيد مُكتنزة بالدّجاج، في فترينة زجاجيّة برّاقة، تدور وتتقلّب، تحمرُّ وتصفرُّ، تقطُرُ ناضجة، وتضوع بعطر إكليل الجَبل. زاد تدَفُّق اللُّعاب وانحدر، بِرَكاً على كنزتي الصّوفيّة، وأنا أسعى كالنّائم الماشي، في اتجاه فترينة اللّحم المصليّ. انتبهت في نومي وحُلمي بفخذ تلك الدّجاجة المكتنزة في وسط السّفود العلوي، أنّ الرّجل الأصلع أبا الشّنب الذي باعته جدّتي دواجننا، في صدر السّوق، قد دخل إلى المحلّ مُزمَهرّاً، يلبس في خصره منديلاً بلاستيكيّاً عليه بعض نقط الدّم، ويحمل في كلتا يديه قفّة سعفيّة كبيرة، ملآنة بجثث دجاجات مذبوحات حديثاً. ظننت أنّه من الزّبائن الذين يتردّدون على المطعم، لكن ترحاب صاحب المحلّ به، تهليله بمقدمه، وكلّ تلك الإطراءات، بينما كان هو ما يزال يقف عل خرقة عتبة الباب، يتخلّص من بقايا الرّيش التي التصقت في أسفل حذائه الرّياضي، غير عابئ، كانت توحي أنّه شخص مهم بالنّسبة إليه وأنّ العلاقة أكبر من ذلك بكثير. جدّتي التي عادت أدراجها إلى العربة رفقة الكهل الأسمر، دون أن أنتبه إلى كليهما، كانت قد تعرّفت إليه أيضاً، ذاك الجزّار، وبالتأكيد إلى رائحة مأساة دجاجاتها المُدلّلات، اللّاتي انتهين في قبضة ثعلب جائع، بكل أسى، مذبوحات ومُريّشات بالجزّازة الكهربائيّة.

عندما واصلت في شُرودي، أطبق فكّيّ على الفراغ مُحاولاً أن أفتك بتلك الفخذ المُحمّرة السّمينة، لكزتني جدّتي بأطرف أصابع يُسْراها على عقب

رَأسي، وقالت لي:
– أين أنت ذاهب؟ ألم أقل لك ألّا تنزل من العربة؟ قل مرحباً للسيّد عادل.
– ...
– هيّا!
أومأتُ برأسي، إلّا أني لم ألقِ التّحيّة بالعبارة. هكذا، على موّالي الخاص، استكثرتها في هذا العادل، الذي ما انفكّ يطبقُ بذراعيه على بطنه البدين كبطّيخة، ويتلوّى بالضّحك على دوختي العموديّة المُحرجة، ولعابي الذي استمرّ في السّيلان رغم كل شيء، وصفعة رأسي المُفاجئة على حين غِرّة.
بعد أن شدّ المكابح، وانتهت نوبة الضّحك (لأنّ جدّتي استدارت نحوه)، أردف قائلاً بفذلكة لا تقلُّ قماءة عن ضحكته:
– فتى ظريف. فتى مُهذَّب!
تضاعف غضبي عليه وكرهي له، لأنّ أشدّ ما يجعلني أشتعل غضباً هو أن ينعتني أحدهم بالفتى، وخاصّة إن كان من الغُرباء. لماذا لا يفهم الجميع أنّي لم أعد صغيراً؟
لقد غدوت رَجلاً. لست فتىً بعد الآن. أنا رجل البيت. افهَموها وخَلِّصونا من دون مُشادّات كلاميّة.
كان هذا الصّراع النّفسي حول موضوع الرّجولة يدور في داخل صدري النحيل، الذي ازداد نحولاً على هُزال، بعد قُرابة سنة من البؤس، في إسطبل الأبقار المجنونة، في أحضان البرد والمطر والجوع والعطش والكوابيس والزبل والبول والجرذان، ضيفاً عند الخَليفة، تمتصّني والصِّبية العبيد أترابي، البراغيث والقَمْل.
تقفّينا، جدّتي وأنا، أثر السّيّد عادل، وهو يقودنا بين الزّناقي الضّيّقة والأحياء القصديريّة، على اليمين وعلى الشّمال، وهو يُثرثر دون انقطاع ويقفز من الدّيك إلى الحمار. مع كل موضوع جديد يغوص في تفاصيله يفتح علبة السجائر، ويضرم النّار في تبغ سيجارة جديدة. كان يأكلها أكلاً، وشككت أن مرمدة بدل الرِّئتين.

بعد مسير مسافة لا بأس بها، نحو عشر سجائر، أوجع فيها رؤوسنا باللّغو والحديث، وانتابنا السّعال من دُخانه النتن الذي يشبه في ريحه مداخن تلك المصانع الضّخمة المنتشرة في ضواحي المدينة، وصلنا إلى القصر، تاج محل، الذي صوّره لنا في مدحيّاته أثناء الطّريق، والمستودع، الخارب، الذي سنكتريه منه، ذاك السّمسار السّفسطائِيّ. هكذا نعتته جدّتي سالمة.

2

القبو

قزقز الصّدَأ عندما أدارت جدّتي المفتاح، وفتحنا الباب. كان الباب عالقاً. تحتاج المفاصل والقفل إلى الزّيت. القبو مهجور منذ سنوات. فوضى. كل شيء مَقلوب على رأسه، يكسوه الغُبار. في الرّكن براز جرذان حديث الرّائحة. حرص السّمسار على قبض ماله مُسبقاً والانصراف مُبكّراً، قبل أن نفتح على تلك القذارة والفوضى. اندفعت، في استقبالنا شرذمة من الفئران، تركض فارّة إلى الكوى والشّقوق الكثيرة في الجدران. صراصير على الأرضيّة القميئة، بعضها ميِّت. نسيج العنكبوت علق في رؤوسنا. ذُباب كثير، يحوم حول الخَراء، منه من وقع في شباك العنكبوت على النّافذة الصّغيرة. تملّكتنا نوبة من عُطاس. رائحة الغُبار لعينة. حكّة عبثت بمناخرنا، رغم أنّنا قرصنا أنفَينا بأصابعنا ووضعنا عليها محارم مُعطّرة من "البابيه موشوار"[10].

10 أو "papiers mouchoirs" الفرنسيّة، وتعني: المناديل الورقيّة.

– ابن الكلب. علمت أنّه يكذب، لكن لم أتوقّع هذه الحال المُزرية.

قالت جدّتي وهي تدعو على السّمسار شرّاً، وتَهجوه.

سألْتُ عن المرحاض.

– مستحيل أن يكون هنا مرحاض.

أجابت جدّتي مؤرجحةً رأسها.

مثانتي كانت مُمتلئَة. تؤلم. تُدغدِغ. لم أعد أتحمّل. كنت على وشك أن أفعلها على نفسي. بعض القطرات تسَرّبت من إحليلي. لم أتمكّن من كبحها. جال نظري في أرجاء تلك الغرفة الفوضويّة البائِسة. لمحت قارورة بلاستيكيّة، مُلقاة حذو جردل دِهان قديم. تقدّمت، على مهل، مُحكماً على بُنيّتي. انحنيت. ثمّ أقعيت. تسلّلت بعض القطرات الأخرى. تناولت القارورة. أدرت الغطاء. قذفته في الهواء. أسرعت. وتواريت وراء برميل حديدي تيبّست عليه قطرات

كثيرة من ماء الجير. أنزلت سروالي وكلسوني إلى الكعبين. أدخلت أيري الصّغير في فم القارورة. أطلقت البول. تدفّقت الحرارة في القاع. ثمّ زحفت إلى المساحة الجانبيّة. استشعرتها على كفّيّ وأنا أخنق بهما القارورة من منتصفها. أحسست لذَّةً كُبرى مع التدفُّق وارتخاء كيس بولي. ثقلت القارورة. تبوّلت بغزارة. لم أتمكّن من الإفراغ طول رحلة الهُروب. كنت نائماً نوم المخدّرين. جدّتي لم تتوقّف، إلى أن بلغنا المدينة، أين لم أحظَ بخلوة. قد التصق بنا سي العادل، والباعة كالطوّابع البريديّة. بعد دقيقة أكملت. رفعت ملابسي. بحثت عن الغِطاء. أغلقت قارورة البول. ألقيتها في البرميل.

نادتني جدّتي:

– سعيد، تعال إلى هنا.

هرولت إليها.

– أعجبك البيت؟

– لا.

– هاهاهاها.

ضحكت ثمّ أضافت:

– فتى لئيم ومُدلّل.

– إنها الحقيقة.

– الحقيقة أنا لم يعجبني أيضاً. فوضى! مع بعض أعمال التّنظيف، سيصبح صالحاً لسكنى البَشر. اخشوشن يا بُنيّ فإنّ المدينة ليست سَهلْة قَطّ!

– سنطرد الفئران يا جدّتي؟

– نعم.

– مرحى!

– والصّراصير؟

– نعم والصّراصير. الفئران والصّراصير جيران، جيران سوء... شمِّر عن ذراعيك. جدّتك بحاجة إليك. جدّتك تُعوِّل عليك.

أدخلنا متاعنا الفقير إلى القبو. في ركن غير مُزدحم بالخرداوات، أخذنا قسطاً من الرّاحة. أكلنا ما تيسّر لنا. هريسة وحقق سردين وبعض حبّات

الزّيتون. لم نعد نأكل خُبز الطّاجين. اقتنينا خبزات سيّئات المذاق من الحانوت في الحيّ المُجاور. خُبز الحانوت رديء. كنّا مُتعبين. أنهكنا المسير الطّويل. نال منّا التّعب. على حشايا نحيلة من الإسفنج، نمنا بعمق. نوم التّعب والأرق. شخرنا جدّتي وأنا. نمنا في الرُّكن البائس المُغبر نفسه. تكوّرْتُ في حضنها كالقطّ المبلول. اضطررنا، في تلك اللّيلة، أن نتقاسم مضجعنا مع الجرذان والخنافس.

3

أعمال التنظيف

في اليوم الموالي، شرعنا في تنظيف كل تلك القذارة ما إن أشرقت الشّمس. شمس المدينة خجولة جدّاً. لا تسطع جهراً على مرأى من الكُلّ. تراها دائماً تتخفّى. كأنّها تتحاشى النّاس. كأنّها تخجل من فعلة دنيئة. كثيراً ما تختفي بين البنايات الباسقة. تتلثّم السّحاب. تغرق في دُخان المصانع الكثيف.

أفطرت. ناولتني جدّتي بعض الدّنانير. هرولت إلى الحانوت نفسه. اقتنيت ما أوصَت أن أقتني، من مُستلزمات التّنظيف. عدت. وجدتُ الكثير من قطع الأثاث القديمة في باحة قرب القبو، تكدّست فيها الزّبالة. ألقت بها جدّتي خارجاً. لم تترك سوى خزانة معطوبة وطاولة خشبيّة مكسورة السّاق وبرميل. وقعت جدّتي على كيس جير متروك في زاوية من زواية المكان، بعد أن ألقت بالعفش المتآكل خارج القبو. اتّسعت المساحة بعض الشّيء. كان المكان مُزدحماً. أشياء تالفة لا تصلح. أفرغت مُحتويات الكيس في البرميل الحديدي. أحضرت الخرطوم. ربطته في فوّهة الحنفيّة. كانت أوّل مرّة أرى فيها حنفيّة. جرباء كانت. نحاسيّة، مزوّقة بحنّاء من الصدأ. جميلة مُعوجّة. كنت مَفتوناً بها. حب من أوّل نظرة كصاعقة من السّماء في الخلاء. كانت مغروزة مباشرة في الحائط. بمجرّد أن أدارت جدّتي عُنقها، تدفّق الماء والصّدأ والصراصير من إحليل الخرطوم الطّويل معاً. ثمّ ما لبث أن صفا الماء وتحوّل لونه من البنّيّ كالتّابل إلى شبه الأصفر النّقي. انهمكت جدّتي في طَلي الحيطان بماء الجير. تتناثر على وجهها أحياناً قطَرات، تقذفُها المِكنسة. جدّتي لا تُعيرُها اهتماماً. رويداً، الهوينى، ابيَضّت تلك الجُدران القبيحة وزال عَنها الدّرن في غضون سُوَيعات. بغرابة، أضاء قَبونا الصّغير وأشرقَ بشمسٍ بيضاء تحت الأرض. كما أصبح يضوع برائحة مُركّزة قويّة، طردت رائحة القُمامة وبراز الجرذان. دهنت جدّتي كلّ الجُدران. جُدرانه قَصيرة. أحسست أنّ قفزة عالية من كنغر مثلي

تكفي أن أصل إلى السّقف. مُكعّب صغير. لم يستطع الجير حجب كل شيء. دوائر سوداء من الوسخ استماتت في كفاحها من أجل البقاء. مُكعّب أبيض مُرقّط كَزهر النّرد.

بالنّسبة إلى الأبواب وذاك الشّبّاك الخَشبي في الأعلى، ارتأت جدّتي أن تطليه بلون أزرق سماويّ. حينما تنساب عليه حزَيمات من أشعّة الشّمس، يُعطي تَمازج الألوان وانعكاسُها تَوهُّجاً جميلاً جدّاً.

مُباشرةً بعد أعمال الدّهان، شَرعنا في شطف الأرض وتنظيفها بالماء والمَسحوق قبل أن تتجفّف وتتيبّس عليها بُقع الجير المُتناثرة، هنا وهُناك في جميع الأنحاء. كان لي فيها نَصيب الأسد لأنّ جدّتي قد أوكلت لي هذه المُهمّة الدّقيقة، فهي أوّلاً أصبحت تعوِّلُ عليّ كثيراً (بما أنّني رجل البيت)، وثانياً فهي لا تتحمّل القرفصاء لأنّ كلّ مفاصلها تُؤلم... وقد كنت عند حُسن ظنِّها بي واصطدتُ بهوسٍ كلّ البُقع رغم كثرتها واستعنت على أمرها بإزميل وحكّاكة الصّحون والمِرشّ.

ثمّ بعد ذلك، فتحت جدّتي الباب والنّافذة. تدفّق الهواء. أقعيْتُ في مجراه. شَعُرت بانتعاشة كُبرى. جفّت الأرضيّة الرّطبة. تغيّر الجوُّ. أبعدتني جدّتي إلى الدّاخل مخافة أن أُصاب بالزُّكام ورشح الأنف. رتّبنا المكان بما تبقّى لنا من طاقة. غيّرت جدّتي الفانوس المُحترق وأصلحت القابس. اشتغل النّور. توهّجت شَمسُ قَبونا الكَهربائيّة في ذاك البياض. في المدينة يهبط الظلام على عجلة من أمره. كلّ شيء مُستعجل في المدينة. كلّ شيء مجنون.

قلبت أناملُ جدّتي الفنّانة كراجَ خرداوات قبيحاً كحاوية قُمامة مطمورة تحت الأرض، تسكنه الزّواحف والحشَرات، إلى ملجأ يليق بكرامة البشر، يليق بنا نحن وكفى. غدا قبوُنا عُشّاً مُمتازاً وقد زركشتهُ قُبّرة تعشق الجمال وتُخْرِجُ الجمال من القُبح، من لا شيء... أطلقت عليه مُكعّب زهرة النّرد! عسى أن يتبسّم لنا الحظ في المدينة. "آآه... لقد أدارت لنا الأيّام بظهرها منذ زمن بعيد"، قالت جدّتي وهي تحمد وتشكر على الخير والشّرّ معاً.

تمدّدنا مُنهكَين على حشايا صفراء من إسفنج. أحسست أنّنا قطع من الزُّبدة الدّسمة. نجذِفُ ونسبح وسط الحليب. فاض بياض القبو علينا وتغلغل إلى

قُلوبنا من الدّاخل. سطوت على نصف حشيّة جدّتي وأنا أمسك بسندويش تونة وهريسة كانت قد أعدّتها لي. انزلقت زيتونة. سقطت على الأرض. حسبت أنّها نجت من أضراسي. لكني تناولتها. أقحمتها في فمي. وطحنتها. ضحكت جدّتي. اقتربت منها أكثر. استوليت على حشيّتها إلّا رُبْعاً أو شبراً صَغيراً وتكوّرت عندها كهُريرٍ صغير. ما لها جدّتي هَزُلت كثيراً كمِعزاتنا المُسنّة؟ أصبحت تنام في شبر من الإسفنج. لم تكن هكذا. عندما سألتها، أجابت في كلمتين: "العُمر والمرض". رفضَتْ الكلام في التّفاصيل. وطمأنتني أنّ الأمور الآن ستكون على ما يُرام. اقتنعت. لم أجادل. جدّتي عند كلمتها ولا تخلف وعْداً قد قطعته أبداً. انتابتني موجةٌ من الدّفء وسعادة جارفة. عاودت الغوص أسبح في الحليب وأركب بياض الجدران. أتثاءب كما تفعل الهِرَرَة. كنت أشعُرُ بالتّعب والنّعاس، قبل أن تدُقّ جدّتي، بسؤالها، مِسماراً في جُرح في قلبي، لم يكن قد الْتَأمَ بعد:

– أنتَ أيضاً قد خسرت من الوزن يا رَجُل. لم أتركك هكذا. ماذا فعل بكم العُمدة الكلب ابن الكلب؟

4

كُنَيْش[11] الشّكاوى

11 دفتر جَيْب صغير.

وجدت عسراً في ابتلاع ريقي. طوال اليوم كنت أشعر أن كرةً من الشّعر عالقة في حلقي. متى أتذكّر أحسّ أنّ قطعة من الزُّجاج، بلّورة الفانوس القديم، قد تكسّرت بداخلي إلى عشرات الأجزاء وغُرزت عميقاً في اللّحم الحيّ.

ماذا فعل العمدة؟

بقي ذاك السؤال يجتاح ذاكرتي ويدور في دوائر كالحصان الجافل.

حاولت أن أجيب جدّتي. لكن لم أستطع. كنت أضعف وأجبن من أن أفعل. لم أكن أريد أن أروي فصول مأساة من جديد. كنت قد اكتفيت من الوجع. أحاول أن أطوي تلك الصفحات الحزينة وأن أستثمر كلّ دقيقة فرحة مع جدّتي بعد أن الْتَأمَ شَمْلُنا من جديد. لم يكن يجدر بي أن أمزّق كرّاستي وأرمي بها في البرميل. كانت شاهدة على كل شيء. أنقذتني من الهلاك. لم يكن سهلاً عليّ أن أمزّق صفحاتها الصّفراء إلى أشلاء. كنت أريد أن أدفن المأساة وأفرح برجوع جدّتي التي انفكّت تسأل من جديد عمّا حلّ بي.

اتّكأت على غفوتي وشعوري الشّديد بالنّعاس كي أتهرّب من ذاك السّؤال العسير.

النّعاس يأكلني.

تَعبان. سأخلد إلى النّوم.

كان قد هبط الظّلام وأسدل الصمت ستائره في السّواد.

***

انتظرْتُ طويلاً حتى يغطّ في النوم. لم تكن تلك عادته. أصبح يتقلّب كثيراً في الفراش. حرارته ليست مرتفعة. مرّرت كفي على جبينه. يبدو أنّها أعراض أرق طويل. إنّه مُرهق.

كنت قد رأيته وهو يقحم كرّاسته الصغيرة في البرميل القذر الكبير.

انتشلت عدداً من الصفحات الممزّقة. ارتعشت يداي. فاحت منهما رائحة كريهة. رائحة مأساة مدفونة في قبر مهدوم.

***

مقدّمة

قبل أن أُقتيد إلى الملجأ، بالصّفع والرّكل والبُصاق، نجحت في الظّفر، خلسةً، بقلم رَصاص وكُنَيْش، انتُسيا حذو إحدى الخيام. قرّرت أن أكتب كلّما سيجري سرّاً. كنت أتوقّع الأسوأ. جدّتي كانت تهجو كثيراً عمدة القرية وتكيل له دعاء الشّر.

لم يكن عندي خيارٌ آخر. مثل هذه الأقاصيص البائسة، فرضت نفسَها عليّ. كتبتها من أجل البقاء. كي لا أنفجر. فكّرت أن أنتحر. بدت عروض المُستودع الخشبيّة مناسبة لتعليق مشنقة. أنا لا أمزح. خيوط الحذاء كانت ستفي بالغرض. شَنق نفسي مثل أولاد المدرسة الذين قرأت عنهم قبْلاً في الصّحف كان يبدو أفضل بكثير من هذه الحياة القبيحة.

ما الفائدة من حياة من دونها؟ أيّة حياة هذه؟

افتقدت الأمل. لم أعد أحتمل. الوحدة تبتلعني. فُراقها أجهز عليّ. آآآآه! قلبي منتفخٌ كبالون. بالكاد أقدر أن أتنفّس. دماغي يغلي كقدر حساء.

أين أنتِ يا جدّتي الحنون؟

كيف تتركينني هكذا بكلّ بساطة؟

***

قلب منفوخ

كنت في حاجة ماسّة إلى الثّرثرة. أن أتكلّم مع أحدهم أو هو الهلاك.

اثنان يمكن أن يخطر بباليهما كتابة المذكّرات: السّعيد والحزين. أنا لم أكن سعيداً إلّا في بعض أحيانٍ شاذّة يعفو عنّي القدر فيها مؤقّتاً ويتناساني قليلاً. هدنة. أنا كنت حزيناً. التصق بي الحزن كما تلتصق العلكة بنُبّانِ مسافرٍ جلس عليها دون أن ينتبه، على أحد كراسيّ القطار. حياتي كانت لعبة مع الزّمان، ملؤها فخاخ. حياتي كانت علكة، تبتئس وتزول حلاوتها ولونها مع المضغ المتوتِّر.

على نور الشّمعة، آواخر اللّيل، عندما يكون الكلُّ نائمين، أختلي بنفسي، وأكتب أوجاعي لنفسي وكفى. لعلّها تصل إلى جدّتي عن طريق الإحساس. لم يكن لنا حمام الزاجل. حمامنا نَفق. تراها بخير، جدّتي؟ عسى أن تصِلَها أحاسيسي! هي وأنا نحذق تلك اللُّغة الجميلة.

قالوا إنّها مريضة. قالوا إنّهم سيموتون جميعاً. مرض السّل سَيُصفّي كل الضّحايا. أهي حيّة أم ميّتة؟ هذا قاسٍ. لا يمكن أن تموت. وأنا ماذا سيحلُّ بي؟

نفسي وأنا، شقيّان نتسامر، نشتكي لبعضنا، دون أن يسمعنا أحد، لكي لا نُقلِق بشكاوينا أحداً أو يشفق علينا أحد.

***

الإسطبل

إنّه أوّل يوم في ملجأ المَسْلولين، وأطول يوم. لم يكن ملجأً تماماً كما زعم العُمدة، أمام رجال الشّرطة والوالي وتلك المخلوقات الفضائيّة ذات القفّازات والإبر مثل القنافذ، بل كان إسطبلاً. نعم. إسطبل مهجور، أفرغه العمدة بعد أن أُصيبت فيه أبقاره بالجنون. جنون البقر.

خديجة قالت لنا ذلك. ابنةُ العمِّ قاسم والعمّةِ مَبروكة. تقيم معنا في الإسطبل البائس نفسه. تبيّن أن أبويها مصابان بالعدوى ونُقلا البارحة إلى مستشفى الأمراض الصّدريّة، مع بقيّة المَسلولين في الشّاحنات وسيّارات الإسعاف. بادئ الأمر، لم نصدِّق كلامها، وحسبنا أنّها تُخيفنا لأنّها أكبر منّا سنّاً

وفظّة بعض الشّيء. لكن حينما أخبرتنا أنّ والديها يشتغلان منذ عشر سنوات في ضيعة العُمدة خليفة، وعندما رأينا الدّموع تَهْمي من عينيها، لمسنا في كلامها الصّدق وعلمنا أنّ ما تقوله صحيح. في الأخير، حال هذا الإسطبل التّعيسة، ورائحة الزِّبل المتيبِّس على الحيطان، وأريج البول الجاف الممتزج برائحة القشّ، وجيف الضّفادع وذاك الجرذ المنتفخ والمتخمّر في الرُّكن المقابل، والصّراصير التي تقفز على بعضها بعضاً في العَتَمة، والذُّباب الذي يمزِّق بطنينه الأجواء المتعفِّنة، ونقص الإضاءة والهواء، كلُّها، مجتمعة، تتسبّب في الجنون للبَقَر والحَجَر. يوم فقط، في نفس الوضعيّة، كان كافياً لكي نعذر البَقَر في خِيار الجنون. هذا المكان اللّعين يثير الجنون والاشمئزاز.

***

كل الأسماء

من دون كل الأولاد والبنات في الملجأ، كنت أتفرد بقائمة طويلة من الأسماء الوضيعة. الكلّ يناديني بها وكنت قد سئمت الشجار كلّ يوم.

وجه النّحس

الملعون

المشؤوم

عاق

إبليس

يتيم

ابن الشيطان

ابن حرام

فرخ

كَبّول

ابن فاحشة

ابن زنا

ابن الفاجرة
ابن القحبة
النّغل... كدت أن أنسى. هكذا صرخت عليَّ زوجة العمدة وهي تقذف إلينا برجلها أقحاف الطّعام.

***

الجوع

مضى يومٌ وليلة على وصولنا إلى هذا الإسطبل القذر. لاحظت ذلك من النّافذة المدوّرة في الأعلى، هبط فيها الظّلام وها قد أشرقت الآن من جديد مع صياح الدّيك. الحزن يُمزِّقني على فراق جدّتي ويُمزِّقُنا جميعاً. لم أنم لذلك أشعر بالدّوّار. حرقة في عينيّ من البُكاء. أظنّ أنّ الكلّ لم ينم بسبب تلك الرّائحة الكريهة التي تنبعث من الجدران المطليّة بالبراز والحزن. زبل وخراء في كل مكان. لم ننم كذلك لأنّنا كنّا جائعين.

"البطون الجائعة لا تنام، وإن نامت، تستيقظ باكراً".

لم نأكل أي شيء ونال من جميعنا الجوع. خديجة تتكئ على الحائط الذي يقابلني، كفُّها على جبينها وتسند، على فخذها، أختها الصّغرى مُهرة. سعديّة تستند على الحائط القميء نفسه، من الجهة الأخرى للباب الأحمر الكبير...

كنّا نطلب الأكل والماء. نطرق على معدن الباب. نحدث ضوضاء. نواصل الطّرق. تكلُّ سواعدنا. آذان صمّاء في الخارج. تزقزق بطوننا. تشخر. ثمّ تعوي.

لا يأتينا الطّعام إلّا مرة واحدة في اليوم، عندما تغرب الشّمس. يقذف لنا من تحت الباب. يجب ترك مسافة أمان. هناك خطر أن نكون موبوئين أيضا. فواضل مُمتزجة. شيء مقزِّز. خبز يابس. هو الطّبق المُقزِّز نفسه. نعزف عليه في البداية. لكن ألم الجوع... حمض المعدة.

يهبط الظّلام. نرضخ رغم أنوفنا ونأكل كل شيء في العتمة، هكذا مع القش والبول والخراء.

***

لم أعد أتحمّل أكثر. تلاعبت بي الأرض وكدت أسقط من الدّوخان. يا هول ما لقيت يا بنيّ! وانكبتاه! واِبناه! والله قسا عليك القدر. ألا لعنة الله على الظالمين. تبّت يداه! تبّت يداه! ابن الكلب. ابن النيّاكة.

أتيت بعلبة الكبريت. سكبت عليها قطرات من الزيت. وأضرمت النّار في تلك الصّفحات البائسة.

5

بائع الخبز

في المدينة تتشابه الأيّامُ كثيراً كأنّها توائم. لا شيء يستحق الذِّكر أو الإطراء. حياة رتيبة جدّاً. لكنّنا نحاول الاندماج في هذا الجنون. في الأخير ليس لنا حلّ بديل، فقد تعبنا من الفرار. نريد بشدّة الاستقرار في مكان واحد فقط. الرّيف جميل لكن الحياة هناك صعبة المراس ومتوحّشة في بعض الأحيان. عندما أتذكّر ماذا حلّ بنا في القرية أبتئس وتتقيّأ ذاكرتي وترتجعُ مآسيَ وأوجاعاً كثيرة. لا، المدينة أرحم. نعم هي كذلك. بعد كل شيء، بدأت أتعوّد على سُرعتها المجنونة، أناسِها العَبوسين، سيّاراتِها المُصابة كلّها بجنون البَقر، وعلى نهارها القصير. كما أنّي أصبحت أشتغل بائعاً متجوِّلاً. أبيع الخُبز. خُبز جدّتي. وقد أصبح يلقى رَواجاً منقطع النّظير. نجني منه قوتنا. ندّخر بعض المال. والأمور على ما يُرام الحمد لله. في المدينة لا يصنعون خُبزاً جيّداً. المخابز كثيرة لكنها فاشلة كلّها في الأغلب. ليس هناك وقت. الكمِّيّة على حساب الجَوْدة. يصنعون خبزات "الباغيت". وكلُّهنّ طويلات، سمراوات، يابسات، وسيّئات المذاق.

أمّا خبز جدّتي فهو طريّ. مخبوز بإتقان. وَمُبسّس بزيت الزّيتون. باختصار تأكلون أصابعكم وراءه. لذلك أهل تلك المنطقة يتهافتون عليه كالجَراد أيّام القحط. في بعض الأحيان ينشب بين الزّبائن تلاسُن أو تنابُز بالألقاب، أحياناً أخرى تدافُع بالأيدي كي لا أقول شجاراً على من يغنم الخُبزة الأخيرة عندما تنفد مني البضاعة وتفرغ كرتونة الورق المُقوّى أمامي.

في الصّباح أبيع "الملاوي" وخُبز "المطاليع". تنفد بسرعة قياسيّة. أمّا بعد الظُّهر فآتيهم بخبز "الطابونة" البدويِّ الأصيل. تنفد الخبزات غالب الأحيان لكن في وقت أطول كما جرت به العادة. لا أتذكّر أنّي عدت مرّة إلى البيت بخبزات بائرات. أبيع كل شيء. ربّما مرّة أو مرّتين في بادئ الأمر. وليس السبب عاهة

في الجَوْدة، إنّما كنت غير مُتمرّس بالتجارة والحديث مع النّاس. يعني أنّني السّبب كبائع مُبتدئ. كانت تنقصني الخبرة آنذاك.

وجدت في بيع الخبز أشياء جميلة وملأت وقت الفراغ. أقدر أن أقول إنّي بجدّ كبرت وأصبحت رجل البيت. غدت جدّتي تعوِّل عليّ وأنا لا أخذلها. كل عشيّ أعود إليها بصُرّة حمراء مكتنزة بالدّراهم. أخفيها تحت طيّات كنزتي الصوفيّة. كنت حذراً من النّاس. تقول جدّتي إنّ المدينة خطِرة. نظرة الناس. بعض العيون كعيون الدّيكة. محتالة.

6

الغراب

اقترب وقت الأذان وغربت الشمس في امتداد الأفق. التفتُّ إلى اليمين ثم إلى الشمال. زلقت يديّ في جيوبي. وجدت المفاتيح. دراهمي كانت هناك أيضاً. طفقت أطوي المناديل وأوضب الأغراض كي أرحل. بقيت خبزة واحدة لم تُبَعْ في ذاك اليوم. أصبح الجوُّ بارداً فجأة. بصقت في وجهي زخات من مطر خفيف. نفخت عليها رياح تائهة بين الشتاء وأواخر الخريف.

في زاوية الشارع، شاحنة خفيفة زرقاء سماوية، عادت وركنت في المكان نفسه. لست أدري لكن أظن أنّها غادرت منذ سويعة وعادت من جديد. بدا الشاب في المقعد بجوار السّائق الأربعينيّ مرتبكاً ويداه ترتعشان وهو يتخلّص من رماد سيجارته من البلّور. تجادلا. لا بد أنهما على خلاف. أو ينتظران أحدهم.

هممت بالرّحيل. انفضّ المارّة وأغلقت المغازة أبوابها. سيارات التاكسي الجماعي تندفع كالقذائف. الكل يجري في اتجاه واحد هو عكس اتجاه الصّباح. يريدون العودة إلى بيوتهم بعد يوم مرهق من العمل.

اشتعلت فوانيس الشارع لكنه ظل منطفئاً يسبح في السّواد خلف ستائر الظلام الذي يوشك أن يلتهم الكل. نهضت من على قطعة الآجرّ التي كنت أجلس عليها. فتح الشاب باب الشاحنة. وضع سيجارته في فمه. قطع الطريق. وسار نحوي وهو ينظر إلى صاحب السّيارة الذي لم يعجبه كيف تواجد أمامه فجأة واضطر إلى الفرملة بعنف. نظرات كأنها رصاص. لم يطل صاحب السيارة كثيراً في الكلام. اكتفى بالاستفهام وحركات حيرة بيده، ثم أدار محركه ومضى، بينما أكمل الشاب المجهول طريقه نحوي وسحابات الدّخان تعتم وجهه. يترنّح قليلاً في مشيه. لم يبالِ بشيء. أحسست بشيء من الخوف رغم أني تعوّدت على التعامل مع النّاس. تراجعت خطوتين إلى الوراء. أشار بيده أن...

– هات خبزة أيها الفتى! ما زال عندك خبز؟ ناكني الجوع.
– نعم واحدة فقط متبقية.
فاحت منه رائحةُ كحول. أسمر البشرة. عيناه حمراوان أحاطت بهما زرقة مائلة إلى سواد أغمق من سُمرة بشرته الدّاكنة. زاد منسوب الخوف قليلاً في قلبي الذي بدأت دقّاته تتسارع. لم يكن هناك أناس يمرّون بالشارع المنطفئ.
تمالكت نفسي. فتحت الكرتونة. أخرجت الخبزة من المناديل. ناولته إيّاها. عدت على عجل وأغلقت الكرتونة. حاولت أن أتجنّب النّظر في عينيه المخيفتين مباشرة. قضم منها قضمة كبيرة.
– خمسمئة مليم سيّدي.
– ماذا؟ أغلى بمرّتين من الباغيت؟ تريد الضِّعف أيها المُحتال؟
أجبته بصعوبة:
– هذا هو ثمن الخبز العربي يا سيدي. الباغيت سيئ.
– هاهاهاهاها.
أخذته ضحكات مستهزئة.
– لماذا؟ ماذا تضع فيه تلك العجوز الخرفة كي تبيعه بضعف ثمنه؟ طحين من أين؟ الطحين طحين... فرخ لعين.
ثم أدار ظهره العريض وانصرف ولم يدفع لي أي قرش. كان يشتم.
– يا سيّد... ي، النقود!
قلت بصوت خافت. لم أكن أريده أن يسمعني فيعود.
غضبت. لكن تجاهلت الأمر. حملت متاعي على عجل. ركضت في اتجاه البيت وقد ارتجفت من الدّاخل. المطر يهمي. لم أجلب مطّاريّة أو معطفاً. قطعت البرك التي تكوّنت على عجل أيضاً. أمسيت كالهرّ المبلول. ألتفت إلى الوراء باستمرار.
سكنت الشاحنة في مكانها كأنّها معطّبة. نور خافت انبعث من أضوائها الأماميّة وتمازج مع قطرات المطر المتلاطمة. سلكت الأزقّة إلى أن خرجت من الحيّ المجاور، خلف حيّنا تماماً.

7

المنعرج

أخرجت المفتاح لكن الباب كان مفتوحاً. ناديت على جدّتي. لم تكن تجيب. استدرت إلى ردهة بجانب القبو. عسى أنّها هناك تدخل الغسيل المنشور على المطر. لم تكن هناك. نزعت حذائي الرّياضي القديم. كساه الوحل وماء المطر. عَرَجْت إلى الدّاخل. سواد داكن يمسح المكان.

– جدّتي؟

– ...

– أنتِ هنا؟

– ...

– مالك تجلسين في الظّلام؟

– ...

– الكهرباء مقطوعة؟

تحسّست القابس على الحائط. الضوء لا يشتغل. جثا على الحجرة ظلام غِدافي. بدا كأنّ اللّيل أتى ليأكلنا. غريب. الإنارة لا تعمل. أخرجت رأسي من الباب. الصومعة مضاءة. فانوس العمارة المقابلة منار. أضواء البيوت تشع من الشبابيك ومن تحت الأبواب.

شققت طريقاً إلى المطبخ وأنا أتحسّس الحيطان. تعثّرت في بعض الأثاث الذي لم يكن هناك. دست على بلّور مكسور. إلى أن وصلت إلى المطبخ. فتحت أحد الأدراج. أخرجت علبة الشّموع والقدّاحة. أشعلت واحدة. سكبت بعضاً من زيتها السّائل على المنضدة وثبّتّها. أشعلت أخرى. حملتها معي!

أنيرت الحجرة شيئاً فشيئاً. قطع أثاث مبعثرة. قارورة زجاجية مكسورة. ملابس مرمية. باب الدّولاب مخلوع. ماكينة الخياطة سقطت على الأرض. معطبة. أسلاك تبرز من الدّاخل. قربت الشمعة. رأيت عليها بقعاً من الدّم.

ارتجفت. انحدرت على يديّ المرتعشتين دمعات من زيت الشّمعة، فأحرقتهما. لم أحسّ بشيء. تقدّمت من الرُّكن الذي تنام فيه جدّتي. بدت تغط في نوم ثقيل. همست أن أفيقي يا جدّتي. لقد عدت. لكنها هامدة لا تردّ. تهدّمت. كأني قصر من ورق نفخت عليه النّسائم. كقطعة دومينو تهاوت وأسقطت معها كل القطع. بدا اللّحاف مضرّجاً بالدِّماء. تقدّمْتُ. بلغ قلبي حنجرتي الصغيرة. أحسست أني أتقيّأ قلبي الذي يكاد يخرج من قفص صدري.

قرّبت النّار. سحبت قليلاً اللّحاف. تخلّل وجه جدّتي سراب نور الشّمعة الفاتر. وجه مُبيض، كدمات زرقاء أحاطت بالعينين. شَفَتان زرقاوان هما الأخريان. وجه يتدلّى من رقبة مكْسورة كغصن عجوز، جافّ، قسمته الريح أو هوت عليه فأسُ حطّاب.

شهقْتُ وانقطع عنّي الهواء. مسحت حدقتاي ذلك المشهدَ المرعب في لمح البصر. هويت على ركبتي. أكلني دوار. حاولت أن أصرخ بأعلى صَوتي. يدٌ عريضة كتمت ذلك الصوت المتفجّع، وغمست وجهي في منديل. رائحة قويّة. كرائحة البنزين. كرائحة الكحول.

ما إن تنشّقتها حتّى غطيت في نوم بلا نهاية. جرّني أحدُهم ثم حملني. لم أعد أحسّ. غبت عن الوعي تماماً.

8

هلوسات

غمغمت. زفرت، في سكرات. خطوط حمراء، تنبثق في مناحٍ عشوائيّة من خط عموديّ ينحدر مائلاً على الجدار. نقاط دم متناثرة على الأرضيّة. زجاج النافذة مكسور. قطع أثاث مُبعثرة في المكان. عقبان تدور حول المنزل.

آدمي رأسه رأس غُراب كان هناك. السّفاح. وجوه مسوخ كثيرة، بشعة إلى أبعد الحدود. السّواد يزدرد القبو، التي ظلت تشع فيه نار قنديل قديم.

ضربها ضربة كبيرة على ركبتيها المُرتعشتين بسكّينه الضّخمة. سقطت كبقرة طاعنة في السّن. ثمّ مرّر تلك السّكين الحادّة على حنجرتها وقطع أوردتها.

في ركن ضيِّق بين الحائط والسّرير، انحشرت جثّتها في وضع بائس. دقّ عنقها. فمها مفتوح. عيناها فاترتان. كدمات تكتسح وجهها الميّت.

كانت عُريانة. الذّراعان إلى أعلى، الكفّان نصف مقبوضتين، كأنّها حاولت أن تتحصّن أو تدافع عن نفسها. عورتها مُمزّقة كانت تطلّ من بين فخذيها الهزيلين. حوضها مكسور. كل شيء مكسور.

مشهد كأنّه رَسمَة رماديّة بقلم الرّصاص أو أنّه لُفّ في كيس بلاستيكي رماديّ كبير. كان الرّماد يحفُّ المكان يفاقم تلك الكآبة. كان كلُّ شيء رماديّاً كرُفات الفحم في قاع كانون آخر الليل.

الجدّة العجوز نائمة هناك في الزاوية الحزينة نفسها، مسجّاةٌ على فراشها الخشبي المهترئ. كما لو أنّها ظلّت تنتظر هباءً المنقذ الذي سيأتي ويعيدها إلى الحياة. اخشوشب جسدها وهو لم يأتِ بعد. قد تأخّر كثيراً.

تأكّد الغراب الآدمي أنّها فارقت. كانت طعنة قاتلة. لم تكن تتطلب الإجهاز عليها. عالجها بضربة واحدة من حَربته وجعلها تغطّ في نوم أبدي.

اكتسى جلد العجوز بياضاً شاحباً كبياض الحليب. نزفت كلّ دمها. لم تبقَ قطرة في عروقها القاحلة التي بدت كقنوات من نحاس تصفِّر فيها زفرات الموت. وقد تجمّدت المسكينةُ فباتت مُتصلِّبة كالخشب.

هكذا كلّ ليلة، يراودني ذلك الحلم المزعج وتطاردني جثّة جدّتي سالمة وهي مقتولة غارقة في بركة من الدّم وكثير من الغربان والعقبان. أصرخ فزعاً بأعلى صوتي، في عديد الأحيان في اللّيل. كان الصّراخ يقلق من تعودوا على النّوم في مستودعات، في تلك الضّيعة المُنعزلة.

9

عجوز البابيه موشوار

كلُّ شيء حزين. أوراق الأشجار، الحيطان، أسفلت الطّريق، السيّارات، محطّة الميترو، العصافير، البلديّة، قطرات المطر على واجهة مغازة كارفور، كارفور نفسه بأبوابه المعدنيّة. كأنّه مشهدٌ هارب من فيلم قديم بالأبيض والأسود. كانت القلّة القليلة من زبائن المغازة في معاطف شتويّة ثقيلة ورماديّة هي الأخرى. الكلُّ يعاني من الرشح. يمخط في محارم الأنف. يقال إنه موسم النّزلة الوافدة. إنفلونزا الخنازير.

كل صباح كنت أرافق عجوزاً لا أعرفها. ليست حنونة كجدّتي سالمة، لكن قلبها حي ولا يزال ينبض، على عكس الجميع في مغارة الشياطين، في تلك المنطقة النّائية.

لم نكن نتكلم كثيراً هي وأنا. لم أكن أحبّها ولم أكن أكرهها. فقط بين بين. نمضي الكثير من الوقت بائسَين مع بعض. نبيع البابيه موشوار والكلوروفيل للمارّة أمام المغازة. في بعض الأحيان أنظّف بلّور السيّارات عندما يشتعل الضوء الأحمر وتتوقف السيّارت. تعلمت منهم الكثير. التّسوّل والشّحاذة والسّرقة والنّشل وكلّ شيء فاسد في المجتمع. أصبحت منحرفاً حقيقيّاً.

الشّاحنة الزرقاء سماوية نفسها مركونة في الزّاوية نفسها كلّ يوم. أفراد العصابة منتشرون أول وآخر الشّوارع المُفضية إلى بعضها بعضاً. هم في كل مكان. حاولت الهرب كثير من المرّات. أُحبِطت كلّها. ضربوني بقسوة بعد كل محاولة حتّى كُسِر كاحلي وأصابني العرج. أصبحت معوقاً. لم أعد أقوى على الجري ولا على الهرب، فأنا لن أبتعد كثيراً. قال لي، وهو يضربني، إنّه سيقتلني كما قَتَلها إن أعدت الكرّة وحاولت الفرار مجدّداً.

بمرور الوقت، أصبحت أحظى بقليل من الثّقة لأني صرت شحّاذاً متميّزاً. كنت أتسوّل جيّداً وأجني قدراً لا بأس به من المال لأن المارّة يشفقون عليّ

لأني هزيل وأعرج. أسلّم المال لوجه الغراب ذي الوشم البشع مقابل الأكل والشّرب والنوم في تلك الضيعة المهجورة. كانت عصابة مُحترفة، تدير ببراعة لعبة التّسول والسّرقة والنّشل في تلك المنطقة ومناطق مُجاورة على حدّ سواء.

في آخر كلّ يوم شحاذة، كنت أدفع لمن قتل جدّتي هكذا بالمجّان. لم يكن عندي خيار، فهم في كل مكان يختلطون بأناسٍ عاديين وشرطيّين فاسدين مرتَشين. لم أنسَ جدّتي سالمة، بعد كل هذه المُدّة. حُفرت في ذاكرتي إلى الأبد. لكن لم أعد أرى كوابيسَ (أو ربّما تعوّدت عليها)، بما أنّني كنت أستلقي كلّ ليلة أفكّر في كيف سأقتله...

حول الكتاب

نبذة

جريمة مروّعة تودي بحياة الجدّة العجوز في تونس العاصمة. لقد وصلتْها رفقةَ حفيدها الصّغير هرباً من الظّلم الذي لحق بهما في قريتهما المنسيّة.

الطّفلُ المنبوذ والابن غير الشرعيّ يروي تفاصيل نشأته في كنف جدّته تحت وطأة الفقر والحرمان.

حكايةٌ من القاع التونسي عن تناقضات مجتمع يلقي بأبنائه إلى مصائر سوداء في زمن يجهض كلّ أمل بالنهوض.

عن المؤلف

غسّان الصّامتي طبيب تونسيّ متخصّص في الطب الباطني العام. يهتمّ بالأدب والقراءة. "النّغْل" هي أوّل عمل روائيّ له.